# الفتوحاتُ الإسلاميَّةُ وخلقُ بعضِ الأفكارِ عن أوروبا في الآدابِ الغربيةِ

العنوان الأصلي للمقالة:

Islamic Imperialism and the Creation of Some Ideas about Europe

Jacqueline Kaye

جاكلين كي

ترجمه وقدّم له: أ.د. فؤاد عبد المطلب

**فمنْ كانَ من هذه الأجيالِ أعرقَ في البداوةِ**
**وأشدَّ بأسا صارَ أقربَ إلى التغُّلبِ على سواهُ**
**إذا تقارَبا في العددِ وتكافأَا في القوَّةِ العصبيَّةِ.**
**. ابن خلدون .**

## مقدمة المترجم

تركَّزتْ معظمُ الأعمالِ النظريةِ المعاصرةِ بصورةٍ جليةٍ على قارَّةِ أوروبا. لذلكَ جاءَ مؤتمرُ سوسيولوجا الأدبِ الَّذي نظَّمَهُ قسمُ الآدابِ من كليةِ الدِّراساتِ المقارنة في جامعةِ إسكس في بريطانيا ما بين ١٣ و١٥ تموز عام ١٩٨٤ ردًّا على النزعةِ الأوروبيَّةِ المركزيَّةِ. وكانَ الغرضُ الرئيسيُّ من هذا المؤتمرِ هو الابتعادَ عنِ التَّركيزِ الأوروبيِّ الضيِّقِ في البحثِ من دعوةِ أعمالٍ تعالجُ العلاقةَ بينَ أوروبا والثَّقافاتِ الأخرى. وتمَّ اختيارُ مجالاتٍ عديدةٍ منها ما يدرسُ البنيةَ العامَّةَ للخطاباتِ الأوروبيَّةِ المركزيَّةِ، وأخرى تتعلقُ بمصوراتٍ جغرافيَّةٍ، وقصصٍ حولَ بداياتٍ استعماريةٍ، ورحلاتِ أناسٍ شرقيِّينَ وغيرِ أوروبيِّينَ إلى أوروبا، ورحلاتِ أناسٍ أوروبيِّينَ إلى الشرقِ في القرنِ التاسعَ عشرَ، وأُلقِيتْ أبحاثٌ ركزتْ على خطاباتٍ تتعلَّقُ بأوضاعٍ استعماريةٍ خاصةٍ مثلِ "البنغالِ في أوائلِ القرنِ التاسعَ عشرَ"، "كتاباتُ الهجرةِ الأستراليةِ"، "الحربُ الفرنسيَّةُ في الجزائرِ"، "الشرقيُّونَ في الولاياتِ المتَّحدةِ ومسألةُ الهويَّةِ القوميَّةِ"، وقضايا أوروبيَّةٌ داخليةٌ كالاستعمارِ داخلَ بريطانيا، واختفاءُ أوروبا "المركزيَّةِ". ونالَ الشرقُ والإسلامُ والعربُ حظًّا لا بأسَ بهِ من الدراسةِ والمناقشةِ ضمنَ أبحاثِ المؤتمرِ. وبرزتْ على نحوٍ باهرٍ بعضُ الأبحاثِ الَّتي تناولتِ الأعمالَ النظريةَ لفرانز فانون وإدوارد سعيد وجاك دريدا. وصدرتِ الأبحاثُ الملقاةُ في المؤتمرِ في مجلَّدينِ بعنوانِ: "أوروبا وغيرُها: أعمالُ مؤتمرِ جامعةِ إسكس لسوسيولوجيا الأدبِ" من تحريرِ فرانسيس باركر وبيتر هيوم ومارغريت إيفرسون وديانا لوكسلي الصادرِ عن جامعة إسكس في كولشسترَ عام ١٩٨٥. واخترتُ بحثا ذا فائدةٍ تنبعُ من أهميةِ مادَّتِهِ بل من دلالتِها وهو بعنوانِ: "الإمبرياليةُ الإسلاميَّة

وخلقُ بعضِ الأفكارِ عن أوروبا" لجاكلين كي وهي أستاذةٌ جامعيَّةٌ وباحثةٌ في جامعةِ إسكس، فقمتُ بنقلِهِ إلى العربيةِ والتقديمِ لهُ والتَّعليقِ عليهِ.

تحاولُ جاكلين كي في هذا البحثِ الاستشراقيِّ وضعَ الإسلامِ في قفصِ الاتِّهامِ من دونِ أيَّةِ محاولةٍ لفهمِ طبيعتِهِ وأُسسِهِ وآفاقِ وجودِهِ في الأندلسِ، بل تقوّمُهُ من الخارجِ ومن زاويةٍ ضيّقةٍ جدا. وحاولتْ أيضا أنْ تنتقدَ وتهاجمَ تحتَ غطاءٍ منَ الموضوعيَّةِ في بحثٍ كرَّستْهُ للحملةِ على العربِ والمسلمينَ، وإنْ كانَ هذا النوعُ من الموضوعيَّةِ مألوفا في الدِّراساتِ والكتبِ. ولم يتصدَّ لها إلا القلَّةُ القليلةُ من العربِ والمسلمينَ وغيرِهِمْ من الموجودينَ نذكرُ منهمُ الدكتور أنور عبد الملك الَّذي طالبَها وبلطفٍ علميٍّ بالتَّخفيفِ من حدَّةِ تحليلاتِها المتطرِّفةِ الَّتي تتعلقُ بالوجودِ العربيِّ والإسلاميِّ في الأندلسِ إذ لا يجوزُ في هذا الإطارِ مقارنةُ ما فعلَهُ العربُ والمسلمونَ في الأندلسِ بما فعلتْهُ قوى إمبرياليَّةٌ في شمالِ إفريقيا أو جنوبِ شرقِ آسيا موضحا الاختلافَ الواضحَ بينَ الطرفينِ.

التبسَ الأمرُ على الباحثةِ بينَ قراءةِ التاريخِ السياسيِّ للدولةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ في الأندلسِ، أيْ في الواقعِ التاريخيِّ الَّذي كان قائما من جانبٍ، وبينَ القيمِ الإنسانيَّةِ والحضاريَّةِ للإسلامِ من جانبٍ آخرَ، وبينَ الحملاتِ الصليبيَّة الَّتي توجَّهتْ إلى الشرقِ وحملاتٍ أخرى إلى أوروبا من الشمالِ. ويمكنُ أنْ تُعَدَّ ردَّةُ فعلِها هنا موقفا "مُعلَنا" من داخلِ مؤسَّسةِ الاستشراقِ الثقافيِّ والأكاديميِّ الإنكليزيِّ. وتتفاوتُ الأفكارُ في نصِّها في اتِّجاهينِ: علميٌّ اختصَّ بالاستكشافِ والتفسيرِ، وإيديولوجيٌّ متحاملٌ جوهريا يتجلَّى في عقدةٍ غربيَّةٍ بحثيَّةٍ استعلائيَّةٍ.

وتنطلقُ جاكلين كي في مقارنتِها الفتحَ العربيَّ الإسلاميَّ بالحملاتِ الصليبيَّة شرقا وشمالا من فكرةِ الحركةِ، من مكانٍ معيَّنٍ باتجاهِ مكانٍ آخرَ. ولكنَّها تتجاهلُ أسبابَ هذه الحركةِ وطبيعتَها ودوافعَها وأهدافَها ونتائجَها. فلولا التمدُّنُ العربيُّ الإسلاميُّ في الأندلسِ لَمَا نهضَ الغربُ، إذ كانَ باعثا للنهضةِ الأوروبيَّةِ وهذه حقيقةٌ عامةٌ معروفةٌ. فقد أدركَ الأوروبيُّونَ أنَّهمْ لا يستطيعونَ الوصولَ إلى مفاتيحِ الحضارةِ إلا إذا أخذُوا سبيلَ العربِ والمسلمينَ في درسِ العلومِ بأنواعِها وتطبيقِها. فاعترافُ الأوروبيّينَ بالعربِ والمسلمينِ حضارة وكيانا يعني، علانية وضمنا، مشروعيةَ الآخرِ وإسهامَهُ ومن ثمَّ الوثوقُ بوجودِهِ. وبكلماتٍ أخرى، ما كانَ لإسبانيا أبدا أنْ تدخلَ التاريخَ لولا القرونُ الثمانيةُ الَّتي عاشتْها في ظلِّ الحكمِ العربيِّ الإسلاميِّ والحضارةِ الَّتي قامتْ هناكَ، وكانتْ باعثا حقيقيا للحضارةِ في أوروبا قاطبة والَّتي كانتْ تتخبَّطُ في ظلماتِ التخلُّفِ والجهلِ والنزاعاتِ المختلفةِ. فالغرضُ من البحثِ التاريخيِّ والأدبيِّ المقارنِ دائما هو الوصولُ إلى الحقيقةِ بإقامةِ حوارٍ متوازنٍ عبرَ المناظرةِ والموازنةِ والاستكشافِ والتفسيرِ، لكنَّ الأمرَ هنا ليسَ كذلك. فمثلا، تعترفُ الباحثةُ الإنجليزيةُ أنَّ الغربيّينَ (سكانُ إسبانيا) توزَّعوا في عددٍ من الاتجاهاتِ الَّتي يمكنُ جمعُها في تيارينِ عندَ مَقدَمِ العربِ والمسلمينَ: تيارٌ يرَى في القادمينَ تهديدا اجتماعيًّا وسياسيًّا وفكريًّا ودينيًّا، وآخرُ يرى فيهم مَقدمَ حضارةٍ، غيرَ أنَّ موقفَ الَّتيارِ الأولِ بدأ ينحسرُ تدريجيًّا مع تراجعِ الأعمالِ الحربيَّةِ، حينَ استقرتِ الأندلسُ وأصبحتْ إحدى أهمِّ بقاعِ

الأرضِ حضارة. فهل وجدَ أهلُ الشرقِ (مسلمونَ ومسيحيونَ) في قدومِ الحملاتِ الصليبيَّةِ إليهم مَقدَمَ حضاريِّيْنَ، أو حضارة جديدة عموما؟ عجزَ الصليبيُّونَ عنِ التأثيرِ إيجابيا في أهلِ الشرقِ ولم يخلفوا وراءَهمْ إلا المجازرَ والخرائبَ والحرائقَ، وآثارُهمُ الباقيةُ تنحصرُ فيما تركُوا من ذكرياتٍ دمويَّةٍ ومواقعَ وتحصيناتٍ عسكريةٍ. وتركَ الأندلسيونَ وراءَهمْ حضارة أسهمتْ إسهاما أساسيا في ولادةِ الحضارةِ الغربيةِ بعامَّةٍ. بلِ امتدحَ بعضُ الأوروبيِّينَ العربَ والمسلمينَ من الوجهةِ الَّتي أفادُوا بها حضارتَهمْ، فكيفَ ومتى وأينَ امتدحَ العربُ الصليبيِّينَ، ومن أيَّةِ وجهةٍ أو جانبٍ؟

للاستشراقِ وجهانِ: إيجابيٌّ وسلبيٌّ، الاستشراقُ العلميُّ الموضوعيُّ الَّذي يبغي المعرفةَ وتحرِّيَ الحقيقةِ ويتَّسمُ بالحيادِ والموضوعيَّةِ، وقامَ بإنصافِ الحضارةِ العربيةِ الإسلاميَّةِ، والاستشراقُ المليءُ بالتحاملِ والتُّهمِ والزَّيفِ والتحريفِ ويحملُ أو يغطِّي أهدافا سياسية وإيديولوجية موجَّهة. فقراءةُ الباحثةِ، على سبيلِ المثالِ، لنصِّ ابنِ خلدونٍ التاريخيِّ تدفعُ المرءَ لِأنْ يشمَّ في هذا البحثِ رائحةَ قراءةٍ متحاملةٍ على نحوٍ واضحٍ إزاءَ ما يخصُّ العربَ والمسلمينَ. فهذا البحثُ ليسَ غريبا، ولا يقفُ بمعزلٍ عنِ الاتجاهاتِ الاستشراقيَّةِ السائدةِ الَّتي تدرسُ الأندلسَ وجنوبَ أوروبا. وتوزَّعَ المستشرقونَ عموما في فريقينِ متنازعينِ ينطلقانِ من مبدأينِ أساسيَّينِ مختلفينِ حيالَ الأحداثِ التاريخيَّةِ والمواقفِ الفكريةِ والأركانِ الحضاريَّةِ في النطاقِ الإسلاميِّ العامِّ من جهةٍ وفي المحيطِ الأندلسيِّ الإسلاميِّ الخاصِّ من جهةٍ ثانيةٍ. فالفريقُ الأولُ يرَى أنَّ زمنَ وجودِ الإسلامِ مدةَ ثمانيةِ قرونٍ في إسبانيا تشكِّلُ حقبة مهمَّة لا سبيلَ إلى تجاهلِها في تاريخِ شبهِ جزيرةِ إيبريةَ. ويتَّصفُ هذا الفريقُ بالنَّقاءِ العلميِّ ويرى أنَّ إسبانيا من دونِ اعتبارِ مرحلةِ الحضارةِ الإسلاميَّةِ دولةٌ عاجزةٌ عنِ الوصولِ إلى الإنجازاتِ الحضاريَّةِ، لذلك فهذه الجماعةُ على صغرِ حجمِها تسيرُ في خطٍّ أقربَ إلى الحيادِ وعلى رأسِهمْ مدرسةُ بني كوديرا. إذ ينتمي إلى هذه الجماعةِ مستشرقونَ أمثالُ خوليان ريبيرا وآسين بلاثيوث وأنخيل غونزاليس بالنسيا وغارسيا غومز وهم تلاميذُ المستشرقِ الإسبانيِّ المعتدلِ فرانسيسكو كوديرا. وأما الفريقُ الثَّاني فيقفُ من الإسلامِ موقفا عدائيًّا ويرَى أنَّهُ لا يمثِّلُ حقبة ذاتَ اعتبارٍ في تاريخِ الأمةِ الإسبانيةِ، وإنَّما يراهُ استعمارا لشعبٍ واغتصابا لأرضٍ وحسبُ. ويحاولُ هذا الفريقُ بمختلفِ الطُّرقِ ويفتعلُ كلَّ المسوِّغاتِ، ويختلقُ عديدا من الأحداثِ مهما خالفتْ ثوابتَ التَّاريخِ وبدهيَّاتِهِ لإثباتِ ما ذهبَ إليهِ وهو للأسفِ الشَّديدِ كثيرُ العددِ، عالي الصوتِ شديدُ الجلبةِ، وأشهرُهمْ من غيرِ الإسبانِ فرانسيسكو سيمونيت(١). وينضمُّ بحثُ جاكلين كي إلى أبحاثِ الفريقِ الثَّاني من دون تحفُّظٍ، فهو يحملُ عنوانا لا يقلُّ استفزازا عمَّا صدرَ من أبحاثٍ لهذه الجماعةِ مثلِ كتابِ "الاحتلالُ العربيُّ لإسبانيا" لخوسيه أنطونيو كوندي(٢).

ويجدرُ بنا أنْ نشيرَ إلى فكرةٍ تتعلَّقُ بعنوانِ البحثِ ومحتواه وهي أنَّ الحضارةَ العربيةَ الإسلاميَّةَ لا "الاحتلالَ" العربيَّ الإسلاميَّ هي الَّتي أدَّتْ إلى حصولِ شعورٍ قوميٍّ في إسبانيا وأسهمتْ على نحوٍ مباشرٍ وإيجابيٍّ في إيجادِ أوروبا. ونذكرُ هنا أيضا مستشرقا ينتمي إلى المستشرقِينَ المنصفِينَ للثقافةِ الإسبانيةِ، تُوفِّيَ منذُ سنواتٍ وصاحبُ كتابِ "حقيقةُ إسبانيا التاريخيةُ" واسمُهُ أميريكو كاسترو. فيُدِيرُ هذا المستشرقُ محاورَ كتابِهِ في اتجاهِ حقيقةِ إسبانيا وينتهي إلى أنَّ

الأندلسيّينَ المسلمينَ هم الَّذين أوجدوا أولَ شعورٍ قوميّ في إسبانيا، تماما على عكسِ ما تطرحُهُ جاكلين كي في بحثِها، ولولاهم لَمَا أصبحَ لإسبانيا أيَّةُ صفةٍ مميَّزةٍ أو شخصيةٍ بينَ الأممِ، لا في تاريخِها الوسيطِ فحسبُ، وإنَّما في تاريخِها الحديثِ أيضا. فإنَّ كاسترو حينَ سطّرَ كتابَهُ كانَ يردُّ على مستشرقٍ اسمُهُ كلوديو سانشيز البرنس الَّذي ألَّفَ كتابا عن إسبانيا الإسلاميَّةِ يهملُ فيهِ شأنَ العربِ والمسلمينَ ويُلغِي القرونَ الثمانيةَ العظيمةَ بجرَّةِ قلمٍ ويقرّرُ بعصبيةٍ واضحةٍ أنَّ تاريخَ إسبانيا يقتصرُ على العناصرِ الرومانيةِ والقوطيَّةِ واللاتينيةِ والكاثوليكيةِ فقط(٣). ففكرةُ "إمبرياليةِ الإسلامِ" غيرُ قابلةٍ للتصديقِ وخاطئةٌ علميا وتاريخيا لأسبابٍ أساسيَّةٍ بسيطةٍ. فمصطلحُ "الإمبرياليةِ" يوحِي بالعلاقةِ غيرِ المتكافئةِ بينَ طرفينِ إنسانيَّينِ: مُستعمِرٍ ومُستعمَرٍ، على غرارِ العلاقةِ بين البريطانيّ والهنديّ، والفرنسيّ والجزائريّ، والأمريكيّ والفيتناميّ، والإسرائيليّ والفلسطينيّ، والأبيضِ والأسودِ في جنوبِ إفريقيا. فإن المسلمينَ عموما، وفي الأندلسِ خصوصا، وكلَّ مَنْ أسلمَ تمتَّعَ بكلِّ الحقوقِ الَّتي تمتَّعَ بها المسلمُ الفاتحُ، وأمَّا الَّذينَ لم يُسلِموا فعُدُّوا أهلَ ذمَّةٍ وطُبِّقَتْ عليهمُ الأحكامُ الشرعيَّةُ الإسلاميَّةُ ولقُوا من السماحةِ والحريةِ والعدالةِ ما قالَ بهِ دينُ الإسلامِ السمحِ. فإنَّ معاملةَ العربِ المسلمينِ لنصارى الأندلسِ ويهودِها منذُ أيامِ الفتحِ الأولى لا تنِمُّ إلاَّ على رقيٍّ حضاريٍّ وتسامحٍ دينيٍّ وإنسانيٍّ لا محدودٍ. ولولا وجودُ علاقةٍ عادلةٍ ومتوازنةٍ شاملةٍ بينَ العربِ والمسلمينَ والناسِ جميعا بصفةٍ عامةٍ في الأندلسِ لَمَا قامتْ تلكَ الحضارةُ الراقيةُ في تلكَ البلادِ (٤).

إنَّ البحثَ المعنيَّ ينتهي إلى نتائجَ مشابهةٍ لنتائجِ الكثيرِ من أبحاثِ المستشرقينَ الَّتي تتلخَّصُ في أنَّ العربيَّ أوِ المسلمَ إنسانٌ مهوَّمٌ ويعيشُ في حالةِ سُباتٍ تعطِّلُ شرقيَّتُهُ فيه دوافعَ الإبداعِ، وأنَّ الإسلامَ ديانةٌ مسلَّحةٌ عدوانيةٌ تهوَى العنفَ والقوةَ والقمعَ والسيطرةَ على العالمِ، وأنَّ رؤيةَ النبيِّ محمَّدٍ إنَّما هي حلمٌ بامتلاكِ القوَّةِ والسَّيطرةِ على العالمِ وتشبهُ رؤيةَ الملكِ مانوييل أو رحلةَ فاسكو دوغاما، وجوهرُ الحلمِ فكرةٌ إمبرياليةٌ، ودورُ العربِ في الازدهار الإنسانيّ نقلٌ من حضارةٍ إلى أخرى دونما ابتكارٍ أو إضافةٍ، فضلا عن أنَّ حلَّ مشكلةِ الاستعمارِ والحريةِ يكمنُ في احتذاءِ النموذجِ الغربيّ الحرّ وذلك كلُّهُ على نحوٍ غائمٍ ودونما توضيحٍ(٥).

ولا نودُّ الإيغالَ في مناقشةِ كلِّ فكرةٍ واردةٍ في بحثِ جاكلين كي، بل تركتْ ما تحويهِ من تحاملاتٍ وأحكامٍ متسرعةٍ وتحريفٍ للوثائقِ أصدرتْها ضدَّ الحضارةِ الإسلاميَّةِ والاستنتاجاتِ الَّتي توصَّلتْ إليها للقراءِ والدارسينَ بالعربيةِ، واكتفيتُ بنقلِ عملِها إلى العربيةِ نقلا يكونُ ما أمكنَ قريبا من الأصلِ، والتصقتُ بمحاولتي للترجمةِ بالنصِّ الأصليّ ولم أتصرفْ إلاَّ في نقاطٍ محددةٍ على نحوٍ يسيرٍ. وفي الواقعِ، هذه المقدمةُ أوِ الردُّ الموجَزُ، ربما يجبُ أنْ يتوجَّهَ إلى الأوروبيّينَ لا إلى العربِ والمسلمينَ، غيرَ أنَّهُ لا ينطلقُ أساسا من فكرةِ الحرصِ على التصدّي لما يكتبُهُ الآخرونَ عنَّا، ولا ينهضُ من منطلقاتٍ دفاعيةٍ إيديولوجيةٍ أو دينيةٍ متحجّرةٍ، بل يهدفُ إلى طرحِ نقاشٍ ووجهةِ نظرٍ مختلفةٍ على نحوٍ واضحٍ في جهدٍ يبحثُ عن مقارنةٍ متوازنةٍ ليصلَ في النهايةِ إلى الحقيقةِ. وفي هذا السياقِ، يذكرُ الدكتور أحمد سمايلوفيتش، أستاذُ العقيدةِ

والفلسفةِ الإسلاميَّةِ بكليةِ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ في سراييفو بيوغوسلافيا، في كتابٍ مهمٍّ حولَ فلسفةِ الاستشراقِ، وسائلَ الاستشراقِ وطرقَ تأثيرِهِ في الأدبِ والثقافةِ العربيةِ المعاصرةِ. فحدثَ تأثيرُهُ المباشرُ بثلاثةِ عواملَ رئيسةٍ يحدِّدُها على النحوِ الآتي: إرسالُ البعثاتِ العربيةِ إلى أوروبا، وحضورُ العربِ مؤتمراتِ الاستشراقِ، واستحضارُ علماءِ الاستشراقِ للتدريسِ في الجامعاتِ العربيةِ. أمَّا أثرُهُ عنِ الطريقِ غيرِ المباشرِ فكانَ بعاملٍ رئيسٍ آخرَ هو ترجمةُ أعمالِ الاستشراقِ إلى اللغةِ العربيةِ (٦). والعاملُ الأخيرُ يكتسبُ أهمية خاصَّة فبالترجماتِ من اللغاتِ الأصليةِ إلى اللغةِ العربيةِ، أخذَ الاستشراقُ ينفذُ إلى الفكرِ العربيّ وثقافتِهِ وأدبِهِ. بيد أنَّ الترجماتِ أيضا توفِّرُ الموادَّ البحثيَّةَ الاستشراقيةَ باتِّجاهاتِها المختلفةِ، وممَّا يجبُ أنْ نشجِّعَ عليه نقلُ السلبيَّةِ –الموجَّهةَ منها–قبلَ الإيجابيةِ والموضوعيَّةِ لتعرُّفِها وفهمِها والردِّ عليها. فهذه الترجمةُ، بكلِّ تواضعٍ، ومثيلاتُها تؤدِّي إلى تمكينِ الدارسِينَ وقُرَّاءِ العربيةِ من أنْ يطَّلِعوا عليها ويتناولُوها بحثا وتمحِيصا. وتتأكدُ أهميةُ هذه المحاولاتِ إذا علمْنا أنَّهُ يندرُ في الوطنِ العربيّ وجودُ هيئاتٍ اختصاصيَّةٍ معنيَّةٍ بتتبُّعِ مثلِ هذه الأبحاثِ، تترجمُها وتدرسُها وتردُّ عليها، وقد تستطيعُ المحاولاتُ الفرديةُ في أحوالٍ كثيرةٍ تعويضَ ذلك في كثيرٍ من المجالاتِ.

**النصُّ:**

## الإمبرياليَّةُ الإسلاميَّةُ
## وخلقُ بعضِ الأفكارِ عن أوروبا

**بقلم: جاكلين كي**

سيحاولُ بحثِي التصديَ لبعضِ المبادئِ الَّتي تكمنُ وراءَ عنوانِ هذا المؤتمرِ (أوروبا وغيرُها) وإعلانُهُ الملصَقُ، الصورةُ رقم [١] (٧). سآخذُ هنا استثناء محدَّدا بالنسبةِ للإعلانِ الملصَقِ والَّذي أشعرُ أنَّهُ يمثِّلُ محاولة مغرورة حينَ أربطُهُ بما هو، وعلى أيِّ صعيدٍ، حدثٌ صغيرٌ بالنسبةِ للسياسةِ الدوليةِ، وهو يتعلقُ بغزوِ الولاياتِ المتَّحدةِ لجزيرةِ غرينادا والقضاءِ على الثورةِ الغرينادِيَّةِ فيها. قد يكونُ لذلك العملِ بعضُ العلاقةِ "بأوروبا" ومهما يكنْ فإنَّهُ بالتأكيدِ وثيقُ الصلةِ بالإمبرياليةِ الأمريكيةِ وسياساتِها التدخُّليَّةِ في منطقةِ جزرِ البحرِ الكاريبيّ. وأريدُ أنْ أتساءلَ هنا ما "أوروبا" الَّتي نحنُ مدعوُّونَ لدراستِها؟ ومَنْ همْ أولئكَ "الآخرونَ" الَّذينَ خضعُوا لها، ولِمَ نقولُ إنَّ المبادئَ الَّتي تكمنُ خلفَ العنوانِ تدعو للارتياحِ أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخرَ؟ أريدُ أنْ أذكِّركمْ أيضا بكلماتِ أغنيةٍ كانتْ شائعة في الخمسيناتِ "نزهةُ الدِّببةِ الأليفةِ" فهذه الأغنيةُ تدعُونا للنزولِ إلى الغابةِ اليومَ ولكنَّها في الوقتِ نفسِهِ تنصحُنا أنْ نبقَى في المنزلِ فهو أكثرُ أمانا لنا. ذلك النوعُ من الجمعِ بينَ النقيضَينِ له علاقةٌ كبيرةٌ بعنوانِ هذا المؤتمرِ.

لِنشرعْ بإنعامِ النظرِ في نكتةٍ قديمةٍ جدا معروفةٍ لدى الناسِ جميعا. أتى رجلٌ إلى منزلِهِ فوجدَ زوجتَهُ في الفراشِ مع رجلٍ آخرَ. فسألَ الزوجُ الرجلَ ماذا تفعلُ هنا في الفراش مع زوجتي، فردَّ عليهِ ذلك الرجلُ أنَّهُ كان متعبا، وقد أنهكَهُ الإعياءُ، ولما وصلَ الفراشَ هوى فيه نائما، فحينئذٍ قالَ الزوجُ: "إنْ حدثَ هذا ثانية فاعلمْ أنَّني سأتشاجَرُ معكَ شِجارا عنيفا". تعودُ هذه النكتةُ إلى أيامِ الحملةِ الصليبيَّةِ الأولى قالَها العربُ ضدَّ الفرنجةِ الَّذينَ كانوا في نظرِ العربِ لا يستطيعونَ السيطرةَ على نسائهِمْ وضعافا جنسيا ومنحلِّينَ عموما. وسأضعُ إلى جانبِ ذلك اقتباسا من عملٍ بعنوانِ "الإشارةُ المضيئةُ" لرجلٍ يُدعَى بول الفاروس كتَبَهُ في منتصفِ القرنِ التاسعِ:

> أحبَّ المسيحيُّونَ قراءةَ أشعارِ العربِ وقصصَ حبِّهِمْ، وكانوا يدرسونَ أعمالَ الفقهاءِ والفلاسفةِ العربِ لا لِيردُّوا عليهمْ بل لِيتعلَّمُوا العربيَّةَ الفصيحةَ والجميلةَ ... كانَ العلماءُ الشبَّانُ المسيحيُّونَ الموهوبونَ يقرؤُونَ ويدرسونَ كُتبَ العربِ بحماسةٍ ... فنسُوا لغتَهم. وإذا كانَ هناكَ بعضُ مَنْ يستطيعُ كتابةَ رسالةٍ باللاتينيةِ إلى صديقِهِ، فقد كانَ هناكَ آلافٌ يستطيعونَ أنْ يعبِّرُوا بفصاحةٍ عن أنفسِهِمْ مستعملينَ اللغةَ العربيةَ وأنْ يكتبُوا بهذه اللغةِ أشعارا تفوقُ أشعارَ العربِ أنفسِهِمْ.
>
> (ساوثرن، النظرات الغربية إلى الإسلام في العصور الوسطى، ص ٢١).

كانَ "بول الفاروس" أحدَ المنافحِينَ عن شهداءِ قرطبةَ الَّذينَ قضَوا في محاولةٍ لإيقاظِ الوعيِ المسيحيِّ في قرطبةَ ضدَّ الحكمِ العربيِّ المهيمنِ وعمليةِ أسلمةِ إسبانيا. وكانتْ فكرةُ الإسلامِ خلالَ هذه الفترةِ كدينٍ معارضٍ للمسيحيةِ قدِ اتسعتْ واستوعبتْ، وذلك جعلَ "اكتشافَ" الإسلامِ يرتبطُ بأفكارِ "سفرِ الرؤيا"، "ونهايةِ العالمِ" وتلكَ الحركاتُ الألفيَّةُ الَّتي بلغتْ ذروتَها آنذاك، فضلا عنِ ارتباطِهِ بعواملَ أخرى، بقيامِ الحملةِ الصليبيَّةِ الأولى. ومن الممتعِ أنْ نلاحظَ أنَّ لغةَ المسيحيةِ –كما قالَ الفاروس بذلك — هي اللاتينيةُ لا الإسبانيةُ أو أيَّةُ لغةٍ محليةٍ أخرى، وأنْ نلاحظَ أيضا أنَّهُ في هذه الفترةِ حكمَ شارلمانُ وظهرتْ فكرةُ ما كانَ يُطلَقُ عليهِ آنذاكَ "بأوروبا" برسمِ الحدود وتثبيتِ الأقاليمِ. ولكنَّها فترةٌ تميزتْ أيضا بتحركاتٍ ضخمةٍ لبعضِ الشعوبِ: ليس فقط حركةُ العربِ شمالا باتجاه إسبانيا والبحرِ المتوسطِ بل أيضا حركةٌ مضاعفةٌ شمالا من البحرِ الأبيضِ المتوسطِ نفسِهِ بقصدِ تبشيرِ "برابرةِ" الشمالِ ونصيرهم القبائل الرحل. ويكتبُ نورمان دانييل في كتابِهِ "العربُ وأوروبا القروسطيةُ":

> ليسَ ضربا من الخيالِ أنْ نقولَ إنَّهُ لما كانتِ الجزيرةُ العربيةُ تمتدُّ لتحيطَ بالبحرِ الأبيضِ المتوسطِ، كانَ البحرُ الأبيضُ المتوسطُ يمتدُّ ليربطَ نفسَهُ بجزرِ الشمالِ البعيدةِ. كان ذلكَ وجهَ شبهٍ، لا وجهَ اختلافٍ، لما سيطرتِ الأسسُ العقائديَّةُ والدينيَّةُ والأخلاقيَّةُ لكلا الديانتينِ.
>
> (ص ١١)

وظهرتْ وقتئذٍ فكرةٌ واحدةٌ عن أوروبا إثرَ سقوطِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ. ففي ذلك الوقتِ تطابقتْ حركتانِ باتِّجاهِ الشمالِ تمثّلانِ ديانتَينِ مسلحتينِ ارتبطتا باجتثاثٍ أو تغييرِ لغاتٍ وثقافاتٍ وأديانٍ محليةٍ قائمةٍ، وكانَ هناكَ تطابقٌ آخرُ بينَ حركتينِ باتِّجاهِ الجنوبِ والغربِ: الفايكينغ أو قبائلُ الشمالِ القادمةِ من إسكندنافيا وقبائلُ الهونِ القادمةُ من الشرقِ. ويذكرُ دانييل في كتابِهِ أنَّ اعتناقَ العربِ لدينِ الإسلامِ حدثَ في نفسِ الوقتِ الَّذي اعتنقَ فيه الإنكليزُ الديانةَ المسيحيَّةَ. ولكنَّ هذه الحركاتِ تمَّتْ دراستُها والتعاملُ معها على نحوٍ مختلفٍ جدا، وأريدُ أنْ أَلفِتَ انتباهَكمْ إلى بعضِ هذا الاختلافِ. فيصفُ أحدُ الأعمالِ المترجمةِ حديثا حولَ ابنِ خلدونٍ والَّذي كتبَهُ الباحثُ الفرنسيُّ إيف لاكوست وصدرَ في فرنسا في الستيناتِ وضعَ المجتمعِ الإسلاميِّ الَّذي يمكنُ أن نتبيَّنَهُ من كتاباتِ العالمِ العربيِّ الكبيرِ:

> إنَّ دراسةَ هذه المجتمعاتِ القاسيةِ والهاجعةِ تقدمُ نفيا قاطعا لأطروحةِ ماركس القائلةِ بأنَّ الصراعَ الطبقيَّ هو محركُ التاريخِ.
>
> (لاكوست، ص ٦٠)

ولنطبقْ هذه الكلماتِ على السلالةِ الأمويةِ الحاكمةِ الَّتي تمكَّنتْ في عام /٧٥٠ م/ من السيطرةِ على الشرقِ الأوسطِ وإيرانَ وشمالِ إفريقيا والبحرِ الأبيضِ المتوسطِ وإسبانيا والبرتغالِ وجنوبِ فرنسا، فنجدُ أنَّ هذه الإمبراطوريةَ في نهايةِ الأمرِ لم تتداعَ بقوَّةِ المحرِّكِ الطبقيِّ الأوروبيِّ وإنما بتجلٍّ أعظمَ لمفعولِ ذلك الجنسِ البشريِّ الهاجعِ ورمزِ الاستبدادِ الشرقيِّ. بل لما دُرِستِ الهيمنةُ الإسلاميَّةُ على نحوٍ أكثرَ جدية، عُومِلتْ على نحوٍ مختلفٍ عما عُومِلتْ بهِ الهيمنةُ في أوروبا. ويكتبُ فرنسيسكو غابرييلي في مقالةٍ عنوانُها "انتقالُ العلمِ والتأثيراتُ الأدبيةُ إلى أوروبا الغربيةِ" الَّتي نُشِرتْ في كتابِ "تاريخُ كمبردج للإسلامِ":

> في الأيَّامِ الأولى لم يعرفِ الغربُ اللاتينيُّ العربَ إلا فاتحينَ وغُزاة ... وبعدَ فترةٍ، لما خفَّتْ حدَّةُ الهجومِ العربيِّ، وبدأَ هذانِ العالمانِ الدينيَّانِ والسياسيَّانِ يتَّصلانِ اتصالا غيرَ حربيٍّ، أصبحَ الغربُ يعِيْ المستوى الرفيعَ الَّذي وصلَ إليهِ ما أحرزَهُ هؤلاءِ العربُ في بلادِهِمْ من ثقافةٍ وعلمٍ.
>
> (تاريخ كمبردج للإسلام، المجلد الثاني، ص٨٥١)

وعلى المرءِ هنا أنْ يضعَ فقط مصطلحَ "إفريقيا السوداءِ" بدلا من "الغربِ اللاتينيِّ" ومصطلحَ "الأوروبيِّينَ" بدلا من "العربِ" ليدركَ المغزى السياسيَّ الكاملَ لهذا المقطعِ. ويَلفِتُ الانتباهَ الباحثُ الأمريكيُّ دونالد لاتش، في مقدمةِ عملِهِ الوثائقيِّ الضخمِ "دورُ آسيا في صناعةِ أوروبا"، إلى ارتباكه لما كان طالبا، فكانَ دائما يطلبُ منهُ أنْ يدرسَ تأثيرَ أوروبا في آسيا:

وممَّا يثيرُ الدهشةَ والاستغرابَ أنَّ قضيةَ كيفيةِ تأثيرِ آسيا في الغربِ عبرَ التاريخِ لم تكنْ تبدو جزءا من تلكَ الاعتباراتِ.

(لاتش، الكتاب الأول، المجلد الأول، ص٧)

ويقولُ مارك بلوتش في عملِهِ "المجتمعُ الإقطاعيُّ" إنَّ أوروبا خُلِقَتْ وسطَ غزوٍ استعماريٍّ ثلاثيٍّ:

هُوجِمتْ أوروبا من ثلاثِ جهاتٍ في الوقتِ ذاتِهِ: دعاةُ الإسلامِ، والعربُ ورعاياهمُ المعرَّبينَ من الجنوبِ، والمجريُّونَ من الشرقِ والإسكندنافيُّونَ من الشّمالِ. ولما كانتِ القوةُ الاقتصاديةُ في أيدي العربِ حتى القرنِ الثانيَ عشرَ، مارسَ العالَمانِ الإسلاميُّ والبيزنطيُّ هيمنة اقتصادية على الغربِ فقِطعُ النقدِ الذهبيَّةُ الَّتي ظلتْ متداولة في عالمِنا الأوروبيِّ كانت تأتيْ من دُورِ الصكِّ الإغريقيةِ أوِ العربيةِ.

(بلوتش، ص٣٠)

ومع هذا فإنَّهُ من الصعبِ أنْ نجدَ باحثينَ أوروبيّينَ يكتبونَ عن تجربتِهمْ كأشخاصٍ مستعمَرينَ. بدلا من ذلكَ نجدُهمْ يتحدَّثونَ عن تأثيرٍ أو "مساهمةٍ" فيما يتعلقُ بالحكمِ العربيِّ ــ الشيءُ الَّذي يوحِي بحالةٍ مستمرَّةٍ للاستعمارِ ــ وهم يتحدَّثونَ على نحوٍ مختلفٍ فيما يخصُّ الغزوَ الشماليَّ فلا يرونَ فيهِ إلا عمليةَ سلبٍ ونهبٍ.

وأثَّرَ الغزوُ الشماليُّ على إنكلترا أكثرَ مما أثّرَ على أيِّ بلدٍ آخرَ، فاستعمرَ الفايكنغ إنكلترا على نحوٍ عنيفٍ جدا. ودُمِّرتِ الممالكُ الإنكليزيةُ القائمةُ وأوَّلُها مملكةُ إيستْ إنجليا (شرق إنكلترا) حيثُ نحنُ موجودونَ الآنَ، وتبعتْها مملكةُ نورثمبريا وميرسيا. ويمكنُ أنْ يقالَ إنَّ غزواتِ الفايكنغ حدَّدتْ خريطةَ بريطانيا الَّتي لا زالتْ قائمة حتى وقتِنا الحاضرِ. ويضيفُ بلوتش:

اتسعَ الاحتلالُ الأجنبيُّ وطالَ خصوصا في إنكلترا، فخضعتِ الخارطةُ السياسيَّةُ والثقافيَّةُ لتغيراتٍ كبيرةٍ جدا. فانهيارُ مملكتينِ ظلَّتا قويَّتينِ حتى وقتٍ متأخرٍ كان يدفعُ إلى نهوضِ مملكةِ ويسكس... وهذا بالفعلِ جعلَ ملوكَ الجنوبِ، وبكلماتِ إحدى شخصياتِهمْ، يحملونَ لقبَ "إمبراطورُ بريطانيا كلِّها".

(بلوتش، ص٤٢)

وكانت تجري في الوقتِ ذاتِهِ تقريبا محاولةٌ لجعلِ إسبانيا سورية تحتَ رايةِ الحكمِ الأمويِّ، أولا بأوامرِ هشامٍ الأوَّلِ الَّذي أسسَ قرطبةَ مركزا للتعصُّبِ العقائديِّ المتزمِّتِ، وبعده بأوامرِ الحَكَمِ. وقامتْ ثورةٌ ضدَّ الحكمِ السوريِّ امتدتْ من إبرو حتى تاغوس قمَعَها جيشٌ محترفٌ من الإسبانِ والمسلمينَ والمسيحيّينَ والبربرِ والعبيدِ. والمقاومةُ الشديدةُ في طليطلةَ أدَّتْ إلى ذبحِ المسيحيّينَ على يَدِ حرسِ الحَكَمِ الَّذينَ كانوا تحتَ إمرةِ قادةٍ مسيحيّينَ، وفي عام /٨١٨ م/ قامتِ انتفاضةٌ ضدَّ نظامِ جبايةِ الضرائبِ أدَّتْ إلى صَلْبِ ثلاثمائةِ شخصٍ، ونُفِيَ آخرونَ إلى فاسٍ والإسكندريةِ وكريتَ.

وقامتِ انتفاضاتٌ ضدَّ الحُكمِ العربيّ في إسبانيا غالبا ما كانَ قوَّادُها من البربرِ الَّذينَ تطوَّعُوا في الجيوشِ العربيةِ لكنَّهمُ انتهزُوا الفرصةَ لتأسيسِ مراكزِ قوَّةٍ لهمْ في إسبانيا.

وكانَ الحكمُ الأمويُّ في إسبانيا بيروقراطيا يرتكزُ على نظامٍ اقتصاديٍّ مُراقَبٍ بصرامةٍ. ووصفَ ليفرمور هذا النظامَ في كتابِهِ "تاريخُ إسبانيا":

> تضمنتِ الضرائبُ المفروضةُ ضريبةَ العُشرِ من المحاصيلِ الزراعيةِ الَّتي يدفعُها المسلمونَ، وضريبةَ الخدمةِ الاجتماعيةِ وضريبةَ الأرضِ الَّتي يدفعُها غيرُ المسلمينَ والجِزياتُ الَّتي يجمعُها رؤساءُ الجماعاتِ الَّتي تنتمِي لمختلفِ الأديانِ. وقامَ فرعٌ خاصٌّ من نظامِ الحكمِ بعقدِ اتِّفاقٍ مع رؤساءِ المجموعاتِ يقومُ بموجبِهِ هؤلاءِ بالاعترافِ بالأميرِ ويدفعونَ الجزيةَ لهُ، وبهذا كانَ ازدهارُهُ الاقتصاديُّ وقوَّتُهُ العسكريةُ أمرَينِ مترابطَينِ.
>
> (ليفرمور، ص ٧٥)

إنَّ المؤرخينَ غيرَ المتأثِّرينَ بالماركسيةِ يقدِّمونَ على نحوٍ متواصلٍ الحكمَ العربيَّ في أوروبا على أنَّهُ حضارةٌ متقدِّمةٌ على حضارةٍ متخلِّفةٍ:

> عبرَ أربعمِائةِ سنةٍ من قيامِهِ، مرَّ الإسلامُ بمراحلَ من التطوُّرِ الفكريِّ لم يتمكنِ الغربُ من إحرازِها إلا بفتراتٍ أطولَ بكثيرٍ.
>
> (سوثرن، ص ٨)

ويوضِّحُ الاقتباسُ من لاكوست في البدايةِ، أنَّ الأفكارَ الماركسيةَ حولَ الجمودِ الشرقيِّ لا تستطيعُ أنْ تفسِّرَ بوضوحٍ اللحظةَ التاريخيةَ الَّتي هي موضوعُ هذه الدراسةِ.

وتُلقَى من ناحيةٍ أخرى أضواءٌ قاتمةٌ على دورِ الفايكنغ، وإنْ ساهموا في حضارتِنا. لِنأخذْ مثالا تاريخيا، لحظة يمكنُ أنْ تكونَ نقطةَ البدايةِ، تاريخٌ يعرفُهُ تلميذُ المدرسةِ الصغيرُ، هو العامُ /١٠٦٦م/. فعندما نُحيِي ذكرى هذا التاريخِ كبدايةٍ لتاريخنا، نحتفلُ بذكرى هزيمةِ الإنكليزِ على أيدي النورمانديّينَ، والَّذين هم بالطبعِ إسكندنافيُّونَ، وما حصلَ من عمليةِ فرنسةٍ وتأثيرٍ لاتينيٍّ في ثقافتِنا. ولكنْ كانَ هناك معركةٌ أخرى خاضَها هارولد قبلَ معركةِ هاستنغ، وهي معركةُ جسرِ ستامفورد ضدَّ جيشِ غزاةٍ يقودُهُ هارالد هاردرادا، ملكُ النروجِ، ورئيسُ الحرسِ الإسكندنافيِّ في القسطنطينيةِ، وقائدُ الجيوشِ البيزنطيَّةِ الَّتي أُرسِلتْ لتقاتلَ العربَ في صقليةَ،وصهرُ أميرِ نوفغورود ومكتشفُ مناطقِ القطبِ الشماليِّ. إذن هذا الرجلُ كان بعيدا كلَّ البعدِ عن أنْ يكونَ وثنيًّا وبربريًّا ولعلَّنا يجبُ أنْ نحزنَ لهزيمتِهِ على أنْ نحتفلَ باستعمارِ

الفرنسيّينَ لنا. وقد يعتبرُ بعضُ الناسِ أنَّ المناطقَ الشماليَّةَ من إنكلترا تتمتعُ بمستوى ثقافيٍّ أعلى من بقيَّةِ المناطقِ لأنَّها كانتْ بعيدة عنِ التأثيرِ الفرنسيِّ وبقيتْ تحتَ تأثيرِ الفايكنغِ.

هاهنا يبرزُ أمامَنا اختلافٌ ثقافيٌّ مُدرَكٌ بالمناضلةِ بينَ الغُزاةِ: إنَّ أولئكَ القادمينَ من الجنوبِ كانُوا، على نحوٍ واضحٍ دائما، أكثرَ تقبُّلا من أولئكَ القادمينَ من الشِّمالِ. والَّذي كانَ يحدثُ هو على أيَّةِ حالٍ اقتسامُ الغنائمِ أيِ الاستيلاءُ على الأراضي بينَ زعماءِ القبائلِ وقوَّادِها الَّذينَ يعقِدُ على الفورِ بعضُهمْ مع البعضِ الآخرِ تحالفاتٍ تتجاهلُ الاختلافاتِ الثقافيَّةَ الَّتي نتحدثُ عنها. ويبدو الأمرُ واضحا في إسبانيا بالعلاقاتِ المتشابكةِ الَّتي نشأتْ بين الحكامِ العربِ وزعماءِ القبائلِ القوطِ الغربيّينَ (٨) الموجودينَ الَّذينَ غزَوا إسبانيا عقبَ نهايةِ الحكمِ الرومانيِّ: ويصفُ ليفرمور الحالةَ آنذاكَ بعد وفاةِ عبدِ الرحمنِ عام /٨٥٢ م/ قائلا:

> في الشَّرقِ أنشأَ المولَّدونَ أيِ المسلمونَ الجُددُ من بني قاسي، الَّذينَ ينحدرونَ من الكونت فورتين الَّذي اعتنقَ الإسلامَ مقابلَ وعدٍ بإعطائِهِ حكما ذاتيًّا، والَّذينَ هربُوا من قرطبةَ، وأقامُوا بالتحالفِ مع فيسكوناتِ مدينةِ بامبالونة، إمارة في وادي إبرو وعاصمتُها مدينةُ سراقسطةَ. وهذه القوَّةُ الجديدةُ والمسمَّاةُ "المملكةَ الثالثةَ في إسبانيا" في أساسِها ردَّةُ فعلٍ إسبانيَّةٌ على الصراعِ بينَ الفرنجةِ والسوريينَ: وكانَ بنو قاسي الأصحابَ القُدامى للأرضِ، ينهبُونَ على الفورِ برشلونةَ الإفرنجيةَ كلَّما تحالفَ المسلمونَ مع النافاريّينَ الأحرارِ.
>
> (ليفرمور، ص ٧٧)

إذن تأسَّستْ إسبانيا من مقاومةِ غزواتِ الفرنجةِ والعربِ معا ومن تحالفٍ بينَ عائلةٍ قوطيَّةٍ مُؤسلَمةٍ، وبشكواليّينَ وثنيّينَ، ومناطقَ مسيحيَّةٍ حرَّةٍ. فإنَّ "اكتشافَ" قبرِ جيمس العظيمِ في سانتياغو كومبوستياد أدَّى إلى تأسيسِ "طريقِ حُجَّاجٍ" وكانَ الخطوةَ الأولى نحوَ استردادِ الإسبانِ بلادَهمْ. ولكنَّ ذلك الاستردادَ تمَّ على طريقةِ الحكمِ العربيِّ في التَّنازلِ عنِ الممالكِ الموالِيةِ وعنِ المناطقِ المعاديةِ الَّتي تمَّ فتحُها على طريقةِ الحكمِ العربيِّ في التوسُّعِ الخارجيِّ. ونستطيعُ أنْ نرى في قصيدةِ "السَّيدِ" تبعيةَ الدُّويلاتِ العربيةِ للحكمِ المسيحيِّ تماما كما أطاحَ القوطيُّونَ بالحكمِ الرومانيِّ وقامُوا مع ذلك بتخليدِ أشكالِ ذلك الحكمِ:

> لهذا اعتمدُوا كلّيا على نظمِ إمبراطوريةٍ كانتْ موجودة قبلَهمْ، وهذه النظمُ تمَّ حفظُها على نحوٍ غريبٍ و بدا أنَّها ممكنةٌ ذاتيا بارتباطِها بنظمٍ جرمانيَّةٍ مشابهةٍ لتشكيلِ حيويَّةٍ مؤسساتيَّةٍ نظاميةٍ.
>
> (بيري أندرسون، من العصور القديمة إلى الإقطاع، ص ١١٣_١١٤)

إنَّ هذه البنيةَ من أنظمةِ الحكمِ تعني أنَّهُ لم يكنْ هناك نقطةُ انقطاعٍ أو خطٍّ كبيرٍ فاصلٍ يمكنُ رسمُهُ بين نهايةِ نوعٍ من الحكمِ وبدايةِ آخرَ. وفي إطارِ محاولتِهِ لمناقشةِ قضيةِ تكوُّنِ الوعيِ القوميِّ الحديثِ يقولُ بنيدكت أندرسن في كتابِهِ "مجتمعاتٌ متخيَّلةٌ":

> لم يكنْ لدى العقلِ المسيحيِّ القروسطيِّ أيَّةُ فكرةٍ عنِ التاريخِ بأنَّهُ سلسلةٌ لا تنتهي منَ الأسبابِ والنتائجِ أوِ الانفصالِ الحادِّ بينَ الماضي والحاضرِ.
>
> (ص ٢٩)

ولعلَّ هذه الفكرةَ ذاتَها من الأسبابِ والنتائجِ والانفصالِ الحادِّ تمنعُنا فعليا من فهمِ الأشكالِ الداخليةِ المتعدِّدةِ للتاريخِ. للنظرِ في ما كتبَهُ إينهارت ونوتكر ذاستامرر عن مراحلِ حياةِ شارلمان والَّتي تشرحُ بوضوحٍ بعضَ الأفكارِ عن استحداثِ أوروبا وأحاولُ استكشافَها الآنَ. بناء على ذلك بإمكاننا أنْ نصفَ شارلمان بأنَّهُ استحدَثَ أوروبا. ففي عام /٦٨٠ م/ ورثَ مع أخيهِ كارولمان أراضيَ واسعة، حكَمَها وحدَهُ فيما بعدُ،وشملتِ الأراضيَ الحاليَّةَ لهولندا، وبلجيكا وفرنسا وألمانيا والنمسا. وكانَ العربُ والفايكنغ يحاصرونَ هذه الأراضيَ من الخارجِ ويهدِّدُها الساكسون والآفارس(٩). وعلى أيَّةِ حالٍ، تمَّ تعريفُ الساكسون كما نعرِّفُهمْ نحنُ اليومَ بالوثنيّينَ المتوحشّينَ. ويكتبُ إينهارت:

> الساكسونُ، مثلُهمْ كمثَلِ كلِّ الشعوبِ الَّتي عاشتْ في ألمانيا، كانوا قساة بطبيعتِهمْ. وهم ينزِعونَ كثيرا لعبادةِ الشيطانِ، ومعادونَ لدينِنا، لم يكونُوا يعتقدونَ أنَّهُ من العيبِ انتهاكُ قوانينِ اللهِ والإنسانِ أوِ العبثُ بها ... ولكنَّهم لما اعتنقُوا الأسرارَ المقدَّسةَ للعقيدةِ والديانةِ المسيحيةِ. اتَّحدُوا مع الفرنكيّينَ [١٠] وأصبحُوا معهم شعبا واحدا.
>
> (إينهارت ونوتكر، ص ٦١)

فتحَ أسلافُنا بريطانيا الكلتيَّةَ الَّتي بقيَ سكانُها يُنظَرُ إليهم على أنَّهمْ قومٌ يمكنُ استيعابُهُمْ على نحوٍ مخالفٍ كما كانَ الحالُ بالنسبةِ للباشكواليّينَ مثلا.

كانَ الموقفُ تجاهَ الحكَّامِ العربِ في إسبانيا مختلفا تماما فلمَّا توقَّفتِ الغزواتِ العربيَّةِ في الأراضي الفرنجيةِ بعد معركةِ بواتييه، فُهِمَتِ الخلافةُ العربيةُ في بغدادَ على أنَّها قوَّةٌ معادلةٌ لقوَّةِ شارلمانَ:

> ظلَّ شارلمانُ على علاقةٍ طيبةٍ جدا مع هارونَ الرشيدِ، ملكِ الفرسِ، الَّذي امتلكَ الشرقَ كلَّهُ ملكيَّة تامَّة، ما عدا الهندَ، وكانَ هارونُ يُقدِّرُ مودَّتَهُ أكثرَ من إطراءاتِ كلِّ ملوكِ العالمِ وأمرائِهِ ويعُدُّهُ الشخصَ الوحيدَ الَّذي يستحقُّ التَّبجيلَ والاسترضاءَ وتقديمَ الهدايا.
>
> (إينهارت ونوتكر، ص ٧٠)

والشيءُ الَّذي تكشِفُهُ أيضا هذه النصوصُ المبكِّرةُ هو الدوافعُ الحقيقيَّةُ الَّتي تكمنُ وراءَ الأحداثِ البطوليَّةِ المعروضةِ. ويكتبُ إينهارت حولَ هزيمةِ الأفارس (الَّذينَ يُدعَونَ بالهون) ما يأتي:

ماتَ في هذه الحربِ نبلاءُ الهونِ جميعا ورحلَ معَهمْ مجدُهمْ، وتناثرتِ الثرواتُ والكنوزُ الَّتي جمعُوها في سنينَ طويلةٍ. ولا تستطيعُ ذاكرةُ إنسانٍ أنْ تذكرَ حربا اغتنَوا فيها وزادتْ فيها ممتلكاتُهُمُ العينيَّةُ أكثرَ من حربِهِمْ ضدَّ الفرنجةِ، اكتشفَ الفرنجةُ في هذه اللحظةِ، وهمُ الَّذينَ ظلُّوا لوقتٍ طويلٍ فقراءَ جدا، الكثيرَ من الذهبِ والفضَّةِ في القصورِ وحازُوا غنائمَ نفيسة جدا في معاركِهِمْ، حتى إنَّهُ يمكنُ القولُ إنَّهُمْ حقَّقُوا العدلَ لما أخذُوا من الهونِ ما كانُوا بدورِهِمْ قد سرقُوهُ بغيرِ عدلٍ من أممٍ أخرى.

(إينهارت ونوتكر، ص ٦٧)

ويشيرُ نوتكر في كتابِهِ حياةُ شارلمانَ إلى تقسيمِ العالمِ بينَ شرقٍ وغربٍ وبروزِ حاكمَينِ قويَّينِ معا في اتحادٍ للسيطرةِ على العالمِ. وبدا ذلك جليًّا في رسالةٍ موجَّهةٍ من ملكِ القسطنطينيةِ إلى شارلمانَ:

لو لم يكنْ يفصلُ بينَنا مضيقٌ مائيٌّ ضيّقٌ.
لَكانَ بإمكانِنا أنْ نقتسِمَ خيراتِ الشرقِ فيما بينَنا
أو أنْ نمتلكَها معا وكلٌّ منَّا يحصلُ على نصيبِهِ الكاملِ.

(إينهارت ونوتكر، ص ١٢٤)

بإمكانِ الحُكَّامِ الأقوياءِ أنْ يتَّحدُوا، ولكنَّ التحالفَ لم يكنْ ممكنا بين قبائلِ القوطيّينَ(١١) والفاندلِ(١٢) الَّذينَ كانُوا منصرفِينَ إلى تهديمِ الأمنِ الَّذي كانَ ينعمُ بهِ الناسُ ... وبتحويلِ العالمِ الغربيّ إلى مجردِ صحراءَ (ص ١٣٦). وسنرَى أيضا أنَّ الغريبَ الآخرَ في الداخلِ يُفهَمُ دائما على أنَّهُ الخائنُ والعدوُّ. وبحسبِ هذه الأعمالِ المبكِّرةِ، الناسُ الرحَّلُ الَّذينَ لا وطنَ لهم يجبُ سحقُهمْ إمَّا بإبادتِهِمْ وإمَّا بحصرِهِمْ في أرضٍ مخصَّصةٍ لهم.

ونتحوَّلُ الآنَ من الشروحِ الَّتي عاصرتْ بقليلٍ أو كثيرٍ حياةَ شارلمانَ إلى أناشيدِ البطولةِ، وإلى أشهرِها "أنشودةُ رولان"خصوصا. فالحدثُ التاريخيُّ الَّذي تستندُ إليهِ الأنشودةُ هو هزيمةُ حاميةِ شارلمانَ عام /٧٧٧ م / في معركةِ رونسيفو / رونسيفال على أيدي الباشكواليّينَ الوثنيّينَ. وظهرتْ هذه الأنشودةُ مكتوبة بعدَ مائتي سنةٍ لما صارتِ الحملةُ ذاتَ دوافعَ دينيَّةٍ في إسبانيا وهو عكسٌ مباشرٌ للواقعِ فذهَبَ شارلمانُ إلى هناكَ تلبية لدعوةِ ثلاثةِ حكَّامٍ عربٍ ثارُوا على أميرِ قرطبةَ. وتمَّتْ في هذه الأنشودةِ المحافظةُ على روحِ الحملةِ الصليبيَّةِ الأولى وعلى ما كانُوا يسمُّونهُ بالخطرِ المتزايدِ للإسلامِ، ويأخذُ فيها الباشكواليُّونَ مكانَ المسلمينَ الغادرينَ، الَّذينَ يهاجمونَ خيرةَ جنودِ شارلمان ويذبحونَهُمْ، ولم يكونُوا قادرينَ على القيامِ بذلك دونَ خيانةِ جانيلونَ عمِّ رولانَ(١٣). ففي الواقعِ، حِينَ شارلمانُ مرَّتينِ ــ خانَهُ حلفاؤُهُ العربُ

الَّذينَ رفضُوا أنْ يدَعُوهُ يدخلُ سرقسطةَ وخانتْهُ العناصرُ السكسونيَّةُ، الَّتي أُرضِيَتْ ظاهريا، وثارتْ مجدَّدا أثناءَ غيابِهِ وأجبرتْهُ على فكِّ الحصارِ عنِ المدينةِ الإسبانيةِ والعودةِ إلى موطنِهِ (انظر، دوزي، الإسلام الإسباني، ص٢٠٤.٢٠٦). ويتحولُ شارلمانُ نفسُهُ في الأنشودةِ من زعيمٍ قبليٍّ ناجحٍ إلى إمبراطورٍ ذي هالةٍ قدسيَّةٍ وفروسيَّةٍ وعمرٍ يبلغُ مائتي عامٍ، وأتباعُهُ ليسُوا لصوصا وجامِعي غنائمَ بل رجالٌ هم أنموذجُ الفروسيةِ المسيحيَّةِ. وأصبحَ الموقعُ الَّذي قُتِلَ فيه رولان وأوليفر في الوقتِ الَّذي كُتِبتْ فيه هذه الأنشودةُ مكانا للحجِّ على الطريقِ إلى سانتياغو، وبهذا تتوجَّهُ الأنشودةُ على نحوٍ قويٍّ بالاتِّجاهِ الإيديولوجيِّ لإعادةِ الغزوِ.

ويوضِّحُ نورمان دانيال في كتابِهِ "أبطالٌ ومسلمونَ"، أنَّ المسلمينَ في أناشيدِ البطولةِ نتاجُ خيالٍ، وأنَّ المعرفةَ الحقيقيةَ بالإسلامِ والَّتي تعمَّقتْ عبرَ أربعِمائةِ عامٍ من الحكمِ العربيِّ في أوروبا أُلقِيتْ جانبا لتُبرِزَ صورة منحرفة عنِ العربِ فهم وثنيُّونَ وعبَدةُ آلهةٍ متعدِّدةٍ مشتقَّةٍ من المثيولوجيا الوثنيَّةِ أوِ الكلاسيكيَّةِ. وهم أيضا كُسالى وحشيُّونَ وفاسدونَ خلُقيا. ولكنَّنا على نحوٍ غريبٍ قد نفكِّرُ أنَّ هؤلاءِ المسلمينَ، كما في أنشودةِ رولان، يظهرونَ فرسانا شُجعانا ذوي شهامةٍ وهمْ في الواقعِ خصومٌ أندادٌ للفرنكيِّينَ الَّذين أصبحُوا الآنَ على أيَّةِ حالٍ فرنسيِّينَ. لهذا كانَ من اللازمِ أنْ يظهَروا ندّا معادِلا للفرنسيِّينَ وفي الوقتِ ذاتِهِ خصوما لهم.

تطابقتْ هذه اللحظةُ مع توطّنِ الشعوبِ وتأسيسِ "مملكةِ" أوروبا ومع توكيدِ أرستقراطيةٍ من القيمِ جسَّدَها رولان وأوليفر بكونِهما حاملي لواءِ هذه المعاييرِ الثقافيَّةِ الإيجابيَّةِ. ومُوِّهتْ دوافعُ جمعِ الغنائمِ والسَّلبِ والنَّهبِ. إنَّ هزيمةَ حاميةِ الجيشِ لم تكنْ هزيمةَ قوةٍ دخلتْ إسبانيا لتشاركَ في الغاراتِ على المناطقِ العربيةِ، بل على العكس كانتِ استشهادا على أيدي قوى معاديةٍ للمسيحيةِ. وعند هذه النقطةِ نستطيعُ أنْ نرى الغموضَ يحيطُ بالعلاقاتِ بينَ المحتلِّينَ في أوروبا، والفرنكيِّينَ من طرفٍ والعربِ من طرفٍ آخرَ.

إنَّ قصيدةَ "السَّيدِ"، الَّتي تشبِهُ "أنشودةَ رولان"، عملٌ شفهيٌّ مجهولُ المؤلفِ، ومن المحتملِ أنَّها جُمِّعتْ تقريبا في الوقتِ نفسِهِ الَّذي جُمِّعتْ فيه أناشيدُ البطولةِ، ولكنَّها لم تُكتَبْ إلَّا في القرنِ الرابعَ عشرَ، ولم تستغرقْ هذه العمليةُ وقتا طويلا. ولعلَّ حياةَ روي ديازدوبيفار(١٤) الَّذي تُوفِّيَ عام /١٠٩٩ م/، أثناءَ الحملةِ الصليبيَّةِ الأولى، كانتْ معروفة أكثرَ. كانَ معاصرا لوقتِ تأليفِ القصيدةِ الَّتي تحتفلُ لهُ بطريقةٍ لم يحظَ بها رولانُ. ولذلكَ فُهِمتْ أعمالُهُ البطوليَّةُ على نحوٍ جوهريٍّ ومُستوعَبٍ. وليس هناك داعٍ للتَّعتيمِ عليها بإخفاءِ مَنْ قامَ بها. إنَّ قصةَ القسمِ الأكبرِ للقصيدةِ تدورُ حولَ كشفِ بيفار، أثناءَ حملةٍ لجمعِ الجزيةِ لصالحِ ملكِ قشتالةَ وليون من حاكمِ إشبيليا العربيِّ، عن مؤامرةٍ ضدَّ الملكِ ضمَّتْ حاكمَ غرناطةَ العربيَّ ونبلاءَ ليونيِّينَ، مثالٌ آخرُ عنِ الخيانة من الداخلِ. ولما أخذَ بيفار على عاتقِهِ معاقبةَ الخوَنةِ قامَ الملكُ بنفيِهِ من البلادِ خوفا من طموحاتِهِ. إنَّ الجزءَ المركزيَّ من القصيدةِ يصفُ سلسلة من أعمالِ السَّلبِ والنَّهبِ الَّتي تجلبُ إلى صفِّهِ قوَّة كبيرة من الرجالِ يدفعُهمْ إلى ذلك الشَّغفُ لاقتسامِ الغنائمِ. وأولُ أعمالِهِ يكمنُ في الاحتيالِ على

يهوديَّينِ أقرضَاه مالا مقابلَ خزانتَينِ للمالِ لم يكنْ بداخلِهما في حقيقةِ الأمرِ سوى الرملِ، عملٌ يبرِّرُ بحاجتِهِ إلى المالِ. إنَّ الأشياءَ المنهوبةَ من المناطقِ العربيةِ غالبا ما تُعادُ للبيعِ هناك، وعملياتُ ذبحِ العربِ الَّتي يستمتعُ بها لا تمنعُهُ من أنْ يحظَى بالحبِّ والاحترامِ بكونِهِ حاكما في المناطقِ العربيةِ:

ظلّ سيِّدي يمشي الليلَ وينامُ النهارَ فأمضى ثلاثَ سنواتٍ في أرضِ المسلمينَ يستولِي على مُدنِهِمْ وينهبُها.

(قصيدة السيد، ص٤٩)

ووصلَ ذلك إلى ذروتِهِ في الشهرِ التَّاسعِ لحصارِ فالنسيا في أثناءِ وصولِ يوسفَ ملكِ المغربِ بناء على طلبٍ من الحُكَّامِ العربِ في إسبانيا لمساعدتِهِمْ وأحضرَ معهُ جيشا يضمُّ أفارقة سودا من نيجيريا الَّتي استعمرتْها حركةُ المرابطينَ في إفريقيا. إنَّ تصالحَ السَّيدِ مع الملكِ تمَّ بسببِ انتصاراتِ السَّيدِ وهداياه السخيَّةِ، وتبعَ ذلك عملٌ خيانيٌّ آخرُ من الداخلِ لما قامَ صِهرا السَّيدِ بضربِ بناتِهِ وهَجرِهنَّ ــ وهو حدثٌ خياليٌّ تماما. وليس هناكَ في القصيدةِ أيُّ معنى يوحِي بالسيطرةِ أوِ الاتِّصالِ بالعربِ ويختلفُ كلَّ الاختلافِ عنِ العلاقاتِ السَّائدةِ في المجتمعِ الإسبانيِّ. وانصبَّ حقدٌ كبيرٌ على حاكمِ برشلونةَ الفرنكيِّ أكثرَ ممَّا انصبَّ على العربِ، الَّذينَ لم ينظرْ حتى إلى اختلافِ لغتِهِمْ. وليسَ هناكَ بالتأكيدِ أيُّ معنى يشيرُ إلى أيِّ اختلافٍ إيديولوجيٍّ أو دافعيٍّ لا تجدُهُ في شعرِ "إعادةُ فتحٍ". وكانَ البرابرةُ في الداخلِ دائما همُ الَّذينَ يخضعونَ للتفسيرِ الإيديولوجيِّ، ولا يوجدُ مكانٌ يتَّضحُ فيه ذلكَ أكثرَ ممَّا يتَّضحُ في معاملةِ الإيرلنديِّينَ، الَّذينَ تعرَّضُوا للغزوِ دوما، ولكنَّهم بقُوا دوما على نحوٍ ارتكاسيٍّ، وثنيِّينَ ومختلفِينَ. وفي كتابِهِ "تاريخُ إيرلندا وطبوغرافيتِها" يذكرُ جيرالد أوف ويلز الَّذي ينتمِي للأرستقراطيَّةِ النورمانديَّةِ الغازيةِ التناقضاتِ المحيرةَ حولَ الإيرلنديِّينَ الَّذينَ ينتمونَ للشُّعوبِ الغربيةِ وهمْ أكثرُ هذه الشعوبِ براءة، ولكنَّهمْ، وإنْ تمتَّعوا بما عندَهمْ من الجمالِ الطَّبيعيِّ الكبيرِ، يبقُونَ متوحشِّينَ لا ثقافةَ لديهِمْ. وإذا كانَ الإسلامُ كما يناقشُ ليفي شتراوس في كتابِهِ "المداراتُ الحزينةُ" غربَ الشرقِ والَّذي يرى الغربُ فيه صورتَهُ منعكسة، وبهذا يجعلُنا شرقَ الغربِ، ومن ثَمَّ فالإيرلنديونَ، مثلُهم مثلُ الشُّعوبِ الرُّحَّلِ الداخليةِ غيرِ المتوطِّنةِ في أوروبا، يجبُ أنْ يكونُوا غربَ شرقِ الغربِ.

وحينَ نتحوَّلُ لمناقشةِ الملحمةِ الشِّعريةِ "اللوسياديات" الَّتي كتبَها كامونز(١٥) نقفزُ نحوَ الأمامِ حوالي أربعِمائةِ سنةٍ لكن وإنْ كانَ هذا العملُ نتاجا ممزَّقا ومعقَّدا فهو يُميطُ اللِّثامَ ويحجبُ كثيرا من الأفكارِ الَّتي يدورُ حولَها بحثِي. فالهوسُ الذاتيُّ تماما والواعي بالهويَّةِ القوميَّةِ، وبعنصريِ الثباتِ والحركةِ، يجعلُ منه وثيقة محوريَّة عن محاولةِ أوروبا لتأريخِ نفسِها وتحديدِها. وفي الوقتِ الَّذي كُتِبتْ فيه هذه الملحمةُ، أيْ حوالي عامِ /١٥٧٠م/ ظهرَ الوعيُ بالعلاقاتِ بين البلدانِ الَّتي نصفُها الآنَ بالأوروبيَّةِ والبلدانِ الَّتي ندعُوها الآنَ بالشرقِ فانعكاساتُ هذه العلاقاتِ تسبِّبُ كثيرا من الفوضى والتناقضِ. ففكرةُ إعادةِ الفتحِ وتأسيسِ الممالكِ وفي المقامِ الأوَّلِ مملكةُ البرتغالِ ثم قشتالةُ في أعقابِ طردِ

الحُكَّامِ العربِ، تبِعَها تحرُّكٌ خارجيٌّ باتِّجاهِ شمالِ إفريقيا أولا ثم باتِّجاهِ إفريقيا وآسيا معا. وهذا يعني أنَّ تأسيسَ حدودٍ قوميةٍ تطابقَ مع تخطِّي تلكَ الحدودِ. واحتفلَ كامواينز بذكرى هذه اللحظةِ، الَّتي "اكتشفَ" فيها نفسِها فاسكودوغاما الهندَ عام /١٤٩٧م/ وتُعتبَرُ عادة بدايةَ السيطرةِ الأوروبيَّةِ على العالمِ، وهي الفترةُ الَّتي أطلقَ عليها أحدُ المؤرِّخينَ الهنودِ "حقبةَ فاسكودوغاما في التاريخِ الهنديِّ" وأنا أقترحُ هنا أنَّ هذه قراءةٌ سيئةٌ لهذه الملحمةِ واللحظةِ معا.

ويشيرُ دونالد لاتش في مقدمةِ كتابِهِ "دورُ آسيا في صنعِ أوروبا" إلى أنَّهُ:

> منذُ عام /١٥٠٠/حتى /١٨٠٠/ سارتِ العلاقاتُ بينَ الشرقِ والغربِ على نحوٍ اعتياديٍّ وعلى أساسِ شروطٍ وضعتْها الأممُ الآسيويةُ. فكانَ الأوروبيُّونَ في الشرقِ يعيشونَ في شقاءٍ،ما عدا الَّذين عاشُوا في نقاطِ الارتكازِ الاستعماريةِ.
>
> (ص١٢)

قُرِئتْ ملحمةُ "اللوسياديات" عبرَ سنينَ عديدةٍ، تحتَ أنظمةِ الحُكمِ الفاشيَّةِ خصوصا نظامُ سالازاروكاتانو في البرتغالِ، بكونِها شعرَ الهويَّةِ القوميَّةِ، والفتحِ الاستعماريِّ، وملحمةَ الانتصارِ في التاريخِ البرتغاليِّ. وكانَ واضحا أنَّ بلدا من أفقرِ البلدانِ في أوروبا استطاعَ الهيمنةَ على العالمِ كلِّهِ، فسيطرَ على مساحاتٍ واسعةٍ من الأرضِ من مانوسَ إلى مالقةَ. وظهرتْ ملحمةُ "اللوسياديات" بلغةٍ مكتوبةٍ أو مطبوعةٍ، على عكسِ النُّصوصِ الأولى الَّتي تطرَّقتُ إليها، إذ لم تكنْ مؤلَّفة بلغةٍ عالميةٍ مثلِ اللاتينيَّةِ أو بلغةِ قبيلةٍ أو شعبٍ معيَّنٍ. ولم تُكتَبْ بلغةٍ يتكلَّمُ بها الناسُ، بل إنَّ كاتبَها استعملَ على نحوٍ واعٍ ومتعمَّدٍ لغةَ القوَّةِ واقتطاعِ الأراضي، وبحسبِ كلماتِ بنيدكت أندرسن هي لغةٌ "تستحضِرُ الصُّورةَ الهامَّةَ عنِ العصورِ القديمةِ اللازمةَ لتكوينِ الفكرةِ الذاتيَّةِ للأمَّةِ"(ص٤٧).

ومن المهمِّ أنْ نلاحظَ هنا أنَّ إعادةَ الفتحِ البرتغاليِّ، أيْ فتحِهِمْ "لبلادِهِمْ"، قادَهُ الألمانُ، أيِ السَّوابيُّونَ(١٦) الَّذين تحرَّكوا باتِّجاهِ شمالي البلادِ. وبالنتيجةِ، أولئكَ التُّعساءُ الَّذينَ عاشُوا في ظلالِ الحكمِ العربيِّ، ونعني مسيحيِّي الأندلسِ المستعربينَ،لاحقَهُمُ الصليبيُّونَ الألمانُ وذبَحُوهمْ. ولما حاصرَ الفرسانُ الإنكليزُ لشبونةَ عامَ /١١٤٠م/، تمَّ ذبحُ المسيحيِّينَ الأندلسيِّينَ الَّذينَ التجؤُوا إلى كاتدرائيَّةِ لشبونةَ مع أُسقُفِهِمُ الإنكليزيِّ، على أيدِي محرِّريهِمُ المزعومينَ. وهذا يعني أنَّ الفتحَ الجديدَ لم يكنْ غرضُهُ التحريرَ بلِ اقتطاعَ الأراضي وإحلالَ قوَّةٍ قبليَّةٍ مكانَ أخرى. وقد تبدو هذه الحملاتُ الصليبيَّةُ كأنَّها تطرحُ إيديولوجية حولَ التوسُّعِ الخارجيِّ، ولكنَّها لا تختلفُ بأيِّ حالٍ عنِ التحرُّكِ العربيِّ الَّذي حدثَ قبلَ سبعِمائةِ عامٍ، بل قلَّدتْ ذلك التحرُّكَ. وكانتْ حركةَ شعبٍ من البدوِ الرُّحَّلِ من مناطقَ شبهِ صحراويَّةٍ إلى مناطقَ أُعتُقِدَ أنَّها أغنى وأكثرُ فائدة، ولكنَّهمْ بقُوا في الواقعِ قادرينَ على تأسيسِ وجودٍ "ساحليٍّ" فقط وشقُّوا طريقَهمْ بأنظمةِ القوَّةِ الموجودةِ قبلَهمْ.

وما نراهُ في "اللوسياديات" هو اكتشافُ دوغاما لا لعالمٍ جديدٍ من الأراضي غيرِ المعروفةِ بل لتفوُّقِ الإسلامِ في كلِّ مكانٍ. فقادَهُ إلى تلكَ الأراضي بحَّارٌ عربيٌّ ولولا مساعدتُهُ لَمَا استطاعَ "العثورَ" على الهندِ. ويكتبُ الباحثُ البرتغاليُّ جوزيه دوساريفا في كتابِهِ "ثقافةُ البرتغالِ":

> الإمبرياليَّتانِ البرتغاليةُ والإسلاميَّةُ كلتاهُما بحريَّتانِ من نوعٍ واحدٍ، تتنافسانِ من منطقةِ سبتةَ إلى مالقةَ. وورِثَ البرتغاليونَ أنواعا معيَّنة من التجارةِ مثلَ تجارةِ الذهبِ والبهاراتِ، والعبيدِ الَّتي احتكرَها العربُ زمنا طويلا، ويبدو أنَّ العاداتِ التجاريةَ العربيةَ أصبحتْ نموذجا لنا. وكانَ التسويغُ المعلنُ للطرفينِ نشرَ الدِّينِ ...وهذا السببُ سمَحَ لجو دوباروس [مؤرخِ حياةِ الملكِ مانويل] بأنْ يُضفِيَ صفةَ الشرعيَّةِ على الحملةِ الصليبيَّةِ الَّتي شنَّتْها البرتغالُ ضدَّ الشرقِ.
>
> (سارابيفا، ص٨٤-٨٥، من ترجمتي)

إنَّ "اللوسياديات" إبداعُ رجلٍ واحدٍ، لم يُعتَمَدْ فيها على التراثِ الشفهيِّ، ولكنَّها ظاهريا أُستُحدِثتْ للتعبيرِ عن روحِ الأمَّةِ. ولكنَّ هذه الأمَّةَ الَّتي ظهرَ اسمُها حديثا، مع كونِها أوَّلَ المؤكِّدِينَ على ذاتِها كقوةٍ استعماريةٍ، فشلتْ في استحداثِ أيِّ معنى ديناميكيٍّ من معاني القوميةِ أو أيِّ طبقةٍ اجتماعيةٍ يمكنُ أنْ يُقالَ عنها إنَّها برجوازيَّةٌ أو رأسماليَّةٌ. فالنقدُ القاسِي والقويُّ الَّذي وجَّهَهُ المؤرِّخونَ وآخرونَ ضدَّ الطبيعةِ السُّكونيَّةِ للمجتمعِ الشرقيِّ يمكنُ على نحوٍ سهلٍ ومعادلٍ أن يطبَّقَ على البرتغالِ، الَّتي هُزِمتْ في سنواتٍ قليلةٍ بعدَ صدورِ الملحمةِ، على أيدي المغاربةِ في معركةِ القصرِ الكبيرِ الَّتي قُتِلَ فيها الملكُ سيباستيان، وضُمَّتْ لاحقا إلى مملكةِ قشتالةَ.

وفي أشعارِ الملحمةِ تُلحِقُ الميثولوجيا الشرقَ بالبرتغال، ولمناقشةِ ذلكَ، يستحضرُ كامواينز ميثولوجيا الإغريقَ والرومانَ الوثنيَّةَ. ولكنْ يجبُ أنْ نتذكَّرَ هنا أنَّ العربَ همُ الَّذينَ نقلُوا المعرفةَ بالحضاراتِ الكلاسيكيةِ إلى أوروبا والَّتي كانتْ نوعا ما "مفقودة" في فتراتِ البربريَّةِ والحروبِ. لذلكَ يحاولُ كامواينز أنْ يؤسِّسَ "تاريخا" ليربطَ بهِ بينَ برتغالِ القرنِ السادسَ عشرَ وعالمِ حضاراتِ الرومانِ والإغريقِ "متناسيا" ما حدثَ بينَهما، أيِ الاحتلالَ العربيَّ لشبهِ الجزيرةِ الإيبيريَّةِ. ونستطيعُ أنْ نقارنَ هذا بما حدثَ في البلدانِ الإفريقيَّةِ لما استُدعِيَ الماضي المجيدُ في عمليةِ تحقيقِ الاستقلالِ الوطنيِّ، مثلُ تسميةِ ساحلِ الذهبِ بـ"غانا"، وبهذا يُقامُ جسرٌ بينَ الحاضرِ والماضي قبلَ الاستعماريِّ. ولكنْ هناكَ ذاكرةٌ من نوعٍ آخرَ في الأشعارِ وهي أقلُّ وعيا تحاولُ تقديمَ البرتغاليِّينَ كرحَّالةٍ طافُوا أرجاءَ الأرضِ، ونجدُ في الأشعارِ نوعا من التوتُّرِ بينَ هدفِ الملحمةِ، أيِ الاحتفالِ بالرحلةِ الهادفةِ، وبينَ ابتهالاتِ طوافٍ عشوائيٍّ أكثرَ إفراحا ومتعة، وهو يأخذُ من تراكيبِ الملحمةِ، شكلَ الاستطراداتِ والتوسُّعاتِ بالإضافةِ إلى حسيَّةٍ وتعقيدٍ بالغٍ في اللغةِ.

وبطريقةٍ مضحكةٍ تماما تحاولُ الملحمةُ أنْ تدرسَ الاكتشافَ البرتغاليَّ حولَ كيفيَّةِ وصولِ العربِ أولا إلى تلكَ الأصقاعِ. فحيثُ يصِلونَ يجِدونَ حكما عربيا مؤسَّسا، أو على الأقلِّ ممثِّلينَ عن قوى إسلاميَّةٍ. وتبلغُ الملحمةُ الذروةَ في

ذلكَ بمناخِ بنيتِها ودرجةِ إضحاكِها، عندَ الوصولِ إلى كالكوتا، أوَّلِ نزولٍ إلى الأرضِ لهم في الرحلةِ الطويلةِ إلى الهندِ. وحينَ تطأُ أقدامُهمُ الشاطئَ، يُحيَّا هؤلاءِ البرتغاليُّونَ بلغتِهِمْ:

ويسألُ شخصٌ: ما الَّذي أحضرَكمْ إلى هنا
من البرتغالِ إلى هذه العوالمِ البعيدةِ جدا؟
وعلى هذا السؤالِ يأتي الجوابُ مضحِكا بوضوحٍ:
.... " قطعْنا الطريقَ كلَّهُ
وعبرَ الأعماقِ السحيقةِ الَّتي لم يعرفْها إنسانٌ،
لِنرى إلى أينَ يجرِي نهرُ السِّندِ العملاقُ
وهكذا فإنَّ دينَ اللهِ سيثبُتُ وينمُو

(كاموينز، الكتاب الثالث، المقطع ٢٥، ص ٢٥٥)

هذا الرجلُ، واسمُهُ منقذٌ، عربيٌّ من تونسَ يصبحُ دليلا وترجمانا لهمْ، ويقومُ بالمفاوضاتِ بينَ هؤلاءِ البرتغاليّينَ والحكَّامِ الهندوسِ ويحذِّرُهمْ من خداعِ أصحابِهِ المسلمينَ. وتماما كما يقومُ بحَّارٌ عربيٌّ بقيادتِهِمْ إلى الهندِ، يقومُ عربيٌّ آخرُ بتعريفِهِمْ بالهندِ. ويعاني البرتغاليُّونَ من صدمةٍ دائمةٍ لدى الاعترافِ بأسبقيَّةِ الإسلامِ واعتمادِهِمْ عليهِ:

ونعجبُ كيفَ يتمكنُ أنصارُ دينٍ كاذبٍ
من نثرِ بذارِ دينِهمْ عبرَ العالمِ كلِّهِ

(كامونيز،١،٥٧، ص،١٧)

إنَّ الطبيعةَ القَرصنيَّةَ للمشروعِ البرتغاليّ، والَّذي نراهُ معترَفا بهِ وواضحا في نصوصٍ أخرى، يُقدَّمُ الآنَ على نحوٍ عكسيٍّ بإنكارٍ. وفي إحدى اللحظاتِ يتوقَّفُ فاسكودوغاما ويقولُ لأحدِ الحُكَّامِ الإفريقيّينَ:

نحنُ لسْنا من لصوصِ البحرِ، ممَّنْ يتجوَّلونَ
غيرَ عابئينَ بالمدن الآمنةِ
وبالحديدِ والنارِ نذبحُ الناسَ البسطاءَ
وننتزعُ أموالَ الغيرِ من أيديهِمْ
وإلى الأراضي البعيدةِ تجرِي بنا الأنواءُ
إلى الهندِ الغنيَّةِ العظيمةِ.

(كاموينز،٨،١١، ص ٦١٢)

وما هو ممتعٌ أيضا ليسَ قراءةَ الملحمةِ بكونِها ملحمةَ احتلالٍ بل تحرُّرٍ، هذه القراءةُ تؤدِّي إلى دمجِ "تاريخِ" البرتغالِ في الأشعارِ، ويظهرُ ذلكَ مرتينِ على نحوٍ أساسيٍّ في تفاصيلَ كثيرةٍ فيها جهدٌ، والَّذي يتمثلُ في محاولةٍ لتحديدِ أرضِ الهويَّةِ القوميَّةِ. ولا يتناولُ هذا "التاريخُ" أكثرَ من تأريخِ "الأعمالِ" وتحالفاتِ بعضِ الملوكِ، لا على صيغةِ "أعمالٍ بطوليةٍ" بل على صيغةِ أحداثٍ سلبيَّةٍ. وتظهرُ الهويَّةُ البرتغاليَّةُ إلى الوجودِ كنفيٍ: فهي تتحدَّدُ في مواجهةِ العربِ والإسبانِ كفعلٍ سياسيٍّ في عمليةِ ولادةِ الملكيَّةِ البرتغاليَّةِ. فالملحمةُ، مثلُ التواريخِ الَّتي ترسمُها، تؤدِّي وظيفةَ تحديدِ أرضِ البرتغالِ، الَّتي يجبُ أنْ تدورَ حولَها. فإنَّ اهتمامَ الملحمةِ يتركَّزُ على استحداثِ دولةٍ كنتيجةٍ لفعلِ القوَّةِ. ويحلمُ الملكُ مانويل برحلةٍ إلى السماءِ، مثلِ رحلةِ محمَّدٍ، وهو حلمٌ بامتلاكِ القوَّةِ:

"ولَسوفَ تكبحُ كلَّ الأممِ الَّتي ترَاها"

(كامونيز،٤،٧٤، ص١٥٣)

ويجبُ أنْ نقابلَ هذا الحلمَ مع نهايةِ الملحمةِ والرؤيةِ الَّتي تُفضِي بها تيثس (١٧) لفاسكودوغاما وتوحِي بنوعٍ آخرَ من المعرفةِ خارجَ بُنى القوَّةِ الموجودةِ.

ويجبُ أنْ ننظرَ في هذا الإطارِ، إلى الحدثِ الشهيرِ في قصةِ "عجوزُ بيليم" على خلافِ ما هو مطروحٌ عادة: بكونِهِ انبثاقا لوعيٍ قديمٍ يحذِّرُ من الغرورِ في هذا المشروعِ. وهذا على العكسِ صوتُ الأرضِ، صوتُ البقاءِ في الأرضِ والرضا بهِ. إنَّهُ في الواقعِ صوتُ المستقبلِ، والحدودِ، والذنبِ والنهايةِ لأولئكَ الَّذينَ ينتهكُونَها:

إنكَ بالفعلِ لَتنحدِرُ من أصلِ إنسانٍ مجنونٍ،
شرَّهُ من ميلِهِ لعدمِ الطاعةِ
آتٍ لا من عالمٍ جليلٍ،
ساقكَ أمامَهُ في نفيٍ حزينٍ بعيدا عنِ الوطنِ
ولكنْ وضعُكَ كلُّهُ في القناعةِ البريئةِ
ببساطةٍ، يبقى، أكثرَ إنسانية . ويجرِّدُكَ
ذلك الشرُّ والميلُ من عصركَ الذهبيّ . ويجرفُكَ كليًّا
إلى عصرِ الحديدِ والحربِ.

(كاموينز،٤٩٨، ص١٥٩)

هناك وأكثرُ من أيّ مكانٍ آخرَ في الملحمةِ نستطيعُ أنْ نرى الروحَ المستعمِرةَ في العلمِ الكلاسيكيّ، والَّذي يعبَّرُ عنه في الملحمةِ من تبنّي بحثٍ مزدوجٍ حولَ أصولِ الآلهةِ، وحولَ قبولِ فكرةِ تدهورِ الكونِ، و"الانحدارِ" من العصرِ الذهبيّ والتَّوقِ إلى عصرٍ بطوليّ مفقودٍ، أيْ نمذجةِ التجربةِ البرتغاليةِ على منوالِ التجربتَينِ السابقتَينِ للإغريقِ والرومانِ.

إنَّ الكرامةَ "القوميَّةَ" تقودُ كامومينز إلى أنْ يكتُبَ عن حادثةِ تمرُّدِ البحَّارةِ على فاسكودوغاما والَّتي تذكُرُها التواريخُ. وعلى عكسِ أحداثِ الخيانةِ الَّتي تذكُرُها ملحمةُ "السَّيدِ" وأنشودةُ رولان، فإنَّ هذه الحادثةَ بمثابةِ خطرٍ على فكرةِ الهويَّةِ بكونِها متماسكة وثابتة. إنَّ نتيجةَ ذلكَ هو الذنبُ والتحدّي الَّذي تحوّلُهُ الملحمةُ على شبكةٍ جاهزةٍ من الآلهةِ الكلاسيكيةِ المحبوسةِ ضمنَ إطارِ صراعاتِها العبثيَّةِ والَّتي بدورِها تُفيدُ وتشُلُّ البرتغاليّينَ في آنٍ واحدٍ، فبقدرِ ما تؤكّدُ الملحمةُ على الهدفيَّةِ، تظهرُ الاعتباطيَّةُ والصدفةُ والضعفُ، إذ إنَّ الوصولَ المنتظَرَ طويلا إلى الهندِ، كما أشارَ كثيرٌ من النُّقادِ، هو على الأغلبِ عرضيٌّ، وهو وصولٌ مفاجئٌ بالتأكيدِ.

إنَّ ذروةَ الملحمةِ الشعريةِ تقعُ خارجَها بكلِّ المعاني وتُوحِي بتحوُّلٍ كبيرٍ في هدفِ كامومينز. فإنَّ الكتابَينِ الأخيرينِ من الملحمةِ واللذَينِ يُعالجانِ وصولَ البرتغاليّينَ إلى جزيرةِ الحبِّ حيثُ تقومُ تيتس وحوريَّاتُها بإمتاعِهِمْ بكلِّ أنواعِ المتعِ الجنسيَّةِ والحسّيةِ يوحيانِ بنظامِ معرفةٍ آخرَ يَبرزُ فجأة من بنيةِ "الاكتشافِ" ويستدعيانِ هدفا آخرَ للرحلةِ. وفي الحقيقةِ غالبا ما يكونُ الاغتصابُ والسَّلبُ والنَّهبُ من نتائجِ الطَّوافِ والتَّرحالِ، لكنَّ هذه النتائجَ تتحوَّلُ هنا على نحوٍ واضحٍ إلى تجارةٍ، وتحقيقِ بُنى قوَّةٍ دائمةٍ وتُواصِلُ بين دولٍ لا أفرادٍ. فجزيرةُ الحبِّ ذاكرةُ المعرفةِ، المعرفةِ بكونِها متعة لا قوَّة. إنَّ تيتس، "عروسُ" دوغاما، تقودُهُ إلى قمَّةِ أحدِ الجبالِ حيثُ تقدّمُ لهُ "نموذجا" بلُّوريًّا مجسَّما للكونِ يستندُ إلى نظامِ بطليموس. فهذا النظامُ الشرقيُّ البالغُ التَّعقيدِ يمثّلُ ذروةَ الملحمةِ. وصعودُ دوغاما يشبهُ عروجَ محمَّدٍ إلى السماءِ، ولكنَّ السماءَ تظهرُ هنا على نحوٍ ممكنٍ تفسيرُهُ. فالمداراتُ المحبوسةُ في نظامِ بطليموسَ توحِي بالسجنِ والتقيُّدِ تماما ولا تقومُ الاستكشافاتُ بكشفِ ما هو مجهولٌ بل المعروفُ والمكتشَفُ سابقا، وهكذا كلَّما غدا العالمُ مرسوما أكثرَ فإنَّهُ يصبحُ أيضا أصغرَ وحبيسا أكثرَ. ويرتكزُ جمالُ النظامِ البطليموسيِّ في الوقتِ نفسِهِ على فكرةِ الكواكبِ السيَّارةِ. فلم يكنْ هناكَ شيءٌ ثابتٌ، كلُّ شيءٍ يتحرَّكُ، ومحورُ هذا النظامِ هو المحرّكُ الأوَّلُ. وكتَبَ شيشرون حولَ نموذجِ أرخيمدسَ:

> وبمزيدٍ من الاختصاصِ كان أفضلُ شيءٍ يستحقُّ الإعجابَ في اختراعِ أرخيمدسَ هو محاولتَهُ استنباطَ أنَّ ثورة واحدة للآلةِ أدَّتْ نوعا ما خدمة في إنتاجِ حركاتٍ غيرِ متساويةٍ ومختلفةٍ بمساراتِها المختلفةِ.
>
> (ملاحظات بيكون، في كامومينز، ص ٣٩٦)

انطلاقا من هذا الجمالِ اللامتناهي للحركةِ كانتِ البلدانُ "الأوروبيَّةُ" فعليا في حالةِ تراجعٍ في اللحظةِ نفسِها الَّتي كانتْ فيها "تتوسَّعُ". ويصفُ مارك بلوتش نهايةَ الغزواتِ في أوروبا بأنَّها تسييجٌ للأرضِ:

> كانَ من الممكنِ بالتَّأكيدِ أنْ يكونَ للمجتمعِ الغربيِّ صراعاتُهُ، ولكنَّها كانتْ ستقعُ ضمنَ منطقةٍ مغلقةٍ. وهذا يعني إمكانيةَ نموٍّ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ على نحوٍ منتظَمٍ، لا يقطعُهُ أيُّ هجومٍ من الخارجِ أو تدفُّقٍ لمستوطنينَ أجانبَ .... وبالتَّأكيدِ إنَّهُ لَمن المعقولِ أنْ نفكّرَ بأنَّ هذه الحصانةَ غيرَ

الاعتياديَّةِ الَّتي نتمتَّعُ بها كميزةٍ لا نشتركُ فيها مع الشعوبِ إلا نادرا، مثلُ اليابانيّينَ، هي إحدى الحقائقِ الجوهريَّةِ للحضارةِ الأوروبيَّةِ بالمعنيينِ العميقِ والدقيقِ للكلمةِ.

(المجتمع الإقطاعي، ص٥٦)

إنَّ الحاجةَ للبقاءِ في أرضِ الوطنِ أمرٌ ضروريٌّ لأنَّ "البقاءَ في أرضِ الوطنِ أكثرُ أمنا"، والخوفُ من التخريبِ الَّذي ينجمُ عنِ الطوافِ وخطرُ تفتُّتِ الشخصيَّةِ الاجتماعيَّةِ تصبحُ من علاماتِ ثقافتِنا لا ثقافاتِ الآخرينَ. "فقط في الأرضِ غيرِ المحدَّدةِ تكمنُ الحقائقُ الراقيةُ"، يكتبُ ملفيل، حيثُ ينزلُ بطلُهُ إسماعيلُ إلى البحرِ في مغامرةٍ انتحاريةٍ، "إنَّها بديلي عنِ المسدَّسِ والرَّصاصِ". وقد يكونُ صحيحا أنَّ الطوافَ يعني الخرابَ. ويدعُو ايثلولف أوف ويسكس في وصيَّتِهِ إلى أنَّ التبرُّعاتِ يجبُ أنْ تُدفَعَ: عن كلِّ أرضٍ مزروعةٍ عليها أناسٌ وقطعانٌ كثيرةٌ، إذا لم تتحوَّلْ إلى صحراءَ. (بلوتش، ص٤١)، ولكنْ إذا كانَ الطَّوافُ يعني الخرابَ فعندَها الثباتُ يعني الموتَ والنتيجةُ نوعٌ من الذنبِ والخوفِ كالَّذي يتجسَّدُ في عنوانِ هذا المؤتمرِ. إنَّ تحديدَ مناطقِ الثقافةِ، وتطويقَ الدُّولِ، والهوياتِ القوميَّةَ، والتماثلَ اللسانيَّ، والعاداتِ الاجتماعيةَ أنظمتُنا الخاصَّةُ في الاستعمارِ الداخليّ ولَربَّما تفسّرُ لنا أيضا غيابَ الإشاراتِ في هذا المؤتمرِ إلى شعبٍ كبيرٍ من الرُحَّلِ، والَّذي يعاني معاناة شديدة في عمليةِ تحديدِ أرضِهِ، وهمُ اليهودُ. إنَّنا نبدُو كأنَّنا نخافُ من أنْ تُخِلَّ حركاتُنا الصغيرةُ بتوازنِ الكونِ وهكذا يكونُ تواضعُنا نوعا من الغرورِ المعكوسِ. وكتَبَ جون ويكليف إنَّ الميزاتِ البارزةَ للإسلامِ وللكنيسةِ الغربيَّةِ واحدةٌ: الغرورُ، والطمعُ، والرغبةُ في حيازةِ القوَّةِ، وحبُّ التملُّكِ الشديدُ، والعنفُ وتفضيلُ الإبداعِ الإنسانيّ على فعلِ اللهِ. ويكتبُ أيضا: نحنُ – المحمديّينَ الغربيّينَ – مع أنَّنا قلائلُ في إطارِ رعايا الكنيسةِ، نظنُّ أنَّ العالمَ كلَّهُ سوفَ ينتظمُ حولَ أحكامِنا ويرتجفُ تحتَ أوامرِنا (سوثرن، ص ٧٩.٨٠). إنَّ ما نخشاهُ كثيرا هو أنْ نكتشفَ أنَّنا لا نختلفُ عنِ الآخرينَ، وأنَّنا بعدَ كلِّ شيءٍ، مثلُهمْ تماما.

## ملحوظاتُ المترجمِ ومصادرُهُ:

١. انظر: الدكتور مصطفى الشكعة "مواقفُ المستشرقينَ من الحضارةِ الإسلاميَّةِ في الأندلسِ"، مناهجُ المستشرقينَ في الدِّراساتِ العربيةِ الإسلاميَّةِ، الجزء الثاني، المنظمةُ العربيةُ للتربيةِ والثقافةِ والعلومِ،١٩٨٥، ص٢٧٥ . ٢٧٩.
٢. المرجعُ السابقُ، ص ٢٨١.
٣. انظر: المرجعَ السابقَ، ص ٢٨٦ . ٢٨٧.
٤. حول تسامحِ المسلمينَ الشاملِ، وتسامحِ القُوَّادِ المسلمينَ الفاتحينَ، انظر، المرجعَ السابقَ، ص ٢٩٨ . ٣٠٣.

٥. حول هذه النتائجِ والتشابهِ في أبحاثِ المستشرقينَ، انظر: مناهجَ المستشرقينَ في الدِّراساتِ العربيةِ الإسلامية، الجزء الأولُ، المنظمةُ العربيةُ للتربيةِ والثقافةِ والعلومِ، ١٩٨٥، ص١٠.

٦. انظر: أحمد سمايلوفيتش، فلسفةُ الاستشراقِ وأثرُها في الأدبِ العربيّ المعاصرِ (القاهرة: دار المعارف،١٩٧٤)، ص٥٤٣ ـ ٥٤٨.

٧. تمثلُ الصورةُ مكافحا وطنيا قبضَ عليه جنديانِ أمريكيانِ على الأغلبِ في أجواءٍ أمريكيةٍ لاتينيةٍ. المترجم.

٨. القوطُ الغربيُّونَ ينتمونَ إلى قبائلَ جرمانيةٍ تنقَّلُوا في جنوبِ أوروبا. أسَّسُوا أولّ مملكةٍ قوطيةٍ غربيةٍ في تولوزَ الحاليةِ. هذه المملكةُ دامتْ من عام / ٤١٩ م / حتى عام /٥٠٧ م /. هُزِمُوا على يدِ قبائلِ الفرنك وأُجبِرُوا على النزوحِ خلف البيرينيه والتجؤُوا إلى شبهِ الجزيرةِ الإيبيريَّةِ. المترجم.

٩. شعبٌ قديمٌ أصلُهُ من آسيا الوسطى غزا أوروبا واستقرَّ في هنغاريا الحاليةِ وهدَّدَ إيطاليا وأخضَعَهُ شارلمان، وتبدَّدَ في بدايةِ القرن التاسعِ الميلاديّ. المترجم.

١٠. الفرنكيونَ همُ الفرنجةُ أوِ الأوروبيّونَ عند الإغريقِ والعربِ، ولكنَّ المصطلحَ مستعمَلٌ هنا للدلالةِ على الفرنكيينَ أيِ القبائلِ الجرمانيَّةِ الَّتي احتلتْ فرنسا في القرنِ السادسِ الميلاديّ. المترجم.

١١. القوطُ الشرقيونَ شعبٌ جرمانيٌّ اجتاحَ الإمبراطوريةَ الرومانيةَ في القرونِ الأولى للميلادِ. المترجم.

١٢. قبائلُ جرمانيةٌ اجتاحتْ فرنسا وإسبانيا وشمالي إفريقيا في القرنِ الخامسِ الميلادي وفي عام /٤٤٥ م / احتلت روما ونهبَتْها. المترجم.

١٣. رولان فارسٌ من فرسانِ شارلمان، قُتِلَ وهو يتقهقرُ مهزوما في شعابِ جبالِ البيرينيه الممتدَّةِ شمالي إسبانيا أمامَ جيشِ المسلمينَ في الأندلسِ. المترجم.

١٤. روي دياز دوبيفار اسمُ صاحبِ لقبِ "السَّيدِ". وكانَ "السَّيدُ" رجلا حقيقيا قاتلَ المسلمينَ في الأندلسِ بقوةٍ، وأصبحَ موضوعا تُحاكُ حولهُ الأساطيرُ الَّتي تروي بطولاتِهِ. وأثَّرتْ شخصيتُهُ في عددٍ من الآدابِ الأوروبيَّةِ. المترجم.

١٥. لويزفازدوكامواينز (١٥٢٤.١٥٨٠) شاعرُ البرتغالِ القوميُّ، عاشَ حياة حافلة بالمغامرةِ. المترجم

١٦. ينتمي السوابيُّونَ إلى قبيلةٍ ألمانيةٍ عاشتْ في منطقةِ سوابيا في جنوبِ غربِ ألمانيا. المترجم.

١٧. تنتمي تيثس في الأصلِ إلى الَّتيتانات، عائلةٌ من الجبابرةِ حكمتِ العالمَ قبلَ آلهةِ الأولمب، وهي ابنةُ أورانوسَ وغايا، وزوجةُ أوقيانوس إلهِ البحرِ الخارجيّ الكبيرِ، ووالدةُ أوقيانيندس في الميثولوجيا الإغريقيةِ. المترجم.

**مراجعُ الباحثةِ:**


١. أندرسون، بنيدكت، مجتمعاتٌ متخيَّلةٌ، لندن (١٩٨٣).

٢. أندرسون، بيري، من العصورِ القديمةِ إلى الإقطاعِ، لندن (١٩٧٤).

٣. مؤلفٌ مجهولٌ، قصيدةُ السَّيدِ، ترجمةُ ل. ب سيمبسون، كاليفورنيا (١٩٥٧).

٤. مؤلفٌ مجهولٌ، أنشودةُ رولان، ترجمةُ دوروثي سيرز.
٥. بلوتش، مارك، المجتمعُ الإقطاعيُّ، لندن (١٩٦١).
٦. كاموينز، لويزدو، اللوسيادیات، ترجمةُ ل. بيكون، نيويورك (١٩٥٠).
٧. دانييل، نورمان، العربُ وأوروبا القروسطيةُ، لندن (١٩٧٥).
٨. دوزي، رينهارت، الإسلامُ الإسبانيُّ، لندن (١٩٧٢).
٩. إينهارد ونوتكرذاستامرر، حياتانِ لشارلمان، لندن (١٩٨١).
١٠. جيرالد أوف ويلز، تاريخُ وطبوغرافيا إيرلندا، لندن (١٩٨٢).
١١. هولت، لامبتن ولويس، تاريخُ كامبردج للإسلام، كمبردج (١٩٧٠).
١٢. لاتش، دونالد، دورُ آسيا في صنعِ أوروبا، شيكاغو (١٩٦٥).
١٣. لاكوست، إيف، ابنُ خلدون، لندن (١٩٨٤).
١٤. ليفرمور، هارولد، تاريخ إسبانيا، لندن (١٩٦٦).
١٥. دوساريفا، جوزيه، ثقافةُ البرتغالِ، الكتابُ الأولُ، المقدمة العامَّة، لشبونة (١٩٨١).
١٦. ساوثرن، آر. دبليو، آراءٌ غربيةٌ حولَ الإسلامِ في العصورِ الوسطى، كمبردج، ماس (١٩٦٢).